# F. الأمبراطورية الشرقية التي أسسها خلفاء دمشق [٦٦١ ـ ٧٥٠]، ملكية عربية ـ سورية، وراثية ومطلقة ومتجهة نحو العالم المتوسطي

# I. أمبراطورية خلفاء دمشق الأمويين

## ١ ـ الخلافة الأموية، ملكية عربية ـ سورية وراثية

يقول بعض المؤرخين إن الخلافة الأموية التي إستقرت في دمشق ليست نظاماً جديداً ولكنها إمتداد وتثبيت لدولة الإسلام السالفة. وأما المؤرخون العرب فإنهم على العكس من ذلك يرون أن السلالة الأموية قد تسببت في إنهيار حسن تنظيم الطائفة الإسلامية الأولية التي أنشأها النبيﷺ.

في الواقع إن إستيلاء معاوية على السلطة وإستبدال المدينة بدمشق كعاصمة للأمبراطورية سجلا بدء وضع جديد أو بالأصح فإنهما أحيا وضعاً بالغ القدم. فكما أن نقل عاصمة الأمبراطورية الرومانية من ضفاف نهر التيبر إلى ضفاف البوسفور، لم يكن البتة مجرد تغيير في المقر الأمبراطوري وإنما إحياء لأمبراطورية الإسكندر وخلفائه الشرقية السابقة هكذا فإن نقل عاصمة الإسلام السياسية من المدينة إلى دمشق كان ردة فعل ظافرة من قبل الشرق السامي ـ الآرامي القديم أو العربي ـ السوري ضد هيمنة الحجاز العربية.

فالطائفة الإسلامية وقد تنامى عددها بفعل إعتناق الدين الإسلامي ستتطور بعد ذلك تحت إدارة خلفاء دمشق بحسب تقاليد الشرق الحضري القديمة في الإتجاه الذي يفرضه عليه واقعه ومستلزمات العصر. لقد كان من نتيجة تلك الظروف تغيير آلية الدولة التي ستأخذ بعد الآن بالإطراد تعقيداً وتعديل نظام الحكم تعديلاً تاماً. إن دولة الخلفاء القائمة على سلطة رئيسها، وأسوة بأمبراطوريتي بيزنطية وكتيزيفون (المدائن) اللتين خلفتهما، ستنتظم بعد الآن في دولة نظامية. إن سلطة خلفاء الرسولﷺ الأوائل التي كانت سلطة إختيارية وشعبية ستتحول في دمشق إلى ملكية عربية ـ سورية وراثية تحيي الملكيات الشرقية القديمة وتكملها.

«إن البساطة الأبوية (التي تميز بها الخلفاء الأربعة الأوائل) لم تكن لتنسجم إلا بصعوبة مع تأسيس حكومة مستقرة في الأطر التاريخية القديمة من آسيا الأمامية. وفي الواقع فإن سورية الآرامية ـ البيزنطية وفارس الساسانية لم تلبثا، إن لم يكن من الوجهة الدينية فأقلاً من الوجهة الثقافية، أن سيطرتا على محتليهما العتيين.

وقد كانت سورية هي التي ظفرت أولاً بهذا الثأر السلمي. فبعد الفتح تسلمت إحدى أقوى الأسر العربية هي الأسرة الأموية الحكم في سورية حيث ما لبثت أن تأقلمت... وإن خلفاء هذه الأسرة، ومن غير التنكر بشيء لدينهم الإسلامي، فإنهم حولوا الجمهورية التيوقراطية التي أنشأها أسلافهم، إلى دولة زمنية حقيقية وذات مركزية قوية بالمعنى البيزنطي للكلمة. إن الأمبراطورية العربية أصبحت معهم نوعاً من الأمبراطورية السورية فالإدارة نسخت فيها عن الإدارة البيزنطية وظلت على أي حال تستخدم عدداً كبيراً من الموظفين اليونان أو السريان. وكان للمسيحيين السريان بخاصة نفوذ كبير في البلاط: منهم سرجون بن منصور الذي كان كبير وزراء معاوية. وكان الخلفاء الأمويون يعيشون في قصورهم في دمشق وهم محاطون بترف يصدم المتعبدين ويبدون تحرراً في التفكير وميلاً إلى الشعر والفن لا بل ولعاً بالفنون مما لم يكن متوقعاً من أبناء الصحراء هؤلاء. فيزيد الأول (٦٨٠ ـ ٦٨٣) مثلاً كان من كبار هواة شرب الخمور واقتناء الكلاب والولع بالراقصات وكان غير دين ومتعلم وهو يذكرنا بالحري بالسلوقيين المتحررين لا بصحابة النبيﷺ... إن الأمويين، وقد أصبحوا قياصرة مسلمين حقيقيين، أرادوا أن يضارع بلاطهم في دمشق القسطنطينية»[1].

### أ ـ الخليفة الأموي، ملك شرقي

إن الخليفة الأموي، وهو خلف ملوك بيزنطية اليونان والملوك الساسانيين الكبار، غدا ملكاً على غرارهم ونقل قواعد التشريفات عن بلاطهم. وهو كملك شرقي لديه شعارات ملكية دينية المصدر: منها عصا النبيﷺ وختمه. كما أن لديه بلاطاً يدخل إليه الزوار البارزون بحسب مرتبتهم في الإسلام. وهو يخرج إلى النزهات الرسمية (الإحتفالية) في مواكب ويظهر بمظهر السيد

1 Grousset, *Les civilisations de l'Orient,* I, p. 154-158.

المتعالي مما يتناقض مع البساطة التقليدية التي كان يتحلى بها أمير القبيلة والتواضع الأبوي لخلفاء المدينة. «إن الخليفة يزيداً الثاني (٧٢٠ ـ ٧٢٤) وهو على صلة نسب نسوي بالملوك الشرقيين يمكنه التباهي بقوله شعراً منثوراً: أنا إبن كسرى وأبي مروان وقيصر بيزنطية جدي وخاقان الترك سلفي وهو أمر لا يخلو من الأهمية»[1].

ب ـ العرب والسوريون

إن الطابع العربي ـ السوري الذي بدت فيه خلافة دمشق، حقيقة تاريخية لا تقبل الجدل. فإن مجموعتين عرقيتين كبيرتين قد أسهمتا، تحت إدارة الخلفاء الأمويين، في تشكيل الأمبراطورية العربية ـ الشرقية وتوسعها وتطورها. فهناك من جهة العرب الذين ينتمون إلى وسط الجزيرة العربية وجنوبها والذين تحولوا نوعاً ما إلى سوريين، فضلاً عن عرب سورية من غساسنة وسواهم، المكونين من القبائل المسيحية (القائلين بالطبيعة الواحدة والنساطرة) القاطنين في المنطقة الداخلية من سورية، والذين إنضموا إلى أبناء جنسهم عرب الجزيرة. وهناك من جهة أخرى السكان السوريون الأصليون، أي الآراميون المستعربون سواء ممن إعتنقوا الإسلام أو من ظلوا مسيحيين. هكذا فإن عرب سورية ناهيك بالآراميين المستعربين فيها لعبوا دوراً بارزاً لدى الخليفة وفي إدارة الأمبراطورية.

«في حين لم يكن السواد الأعظم من شعب العراق قد جاء من الصحراء إلى أرض الرافدين إلا إثر حروب الفتح، فإن معظم عرب سورية، كانوا قد سكنوا فيها منذ قرون، وتعودوا الخضوع إلى نظام سياسي بفعل إحتكاكهم الطويل مع الكنيسة المسيحية ومع الأمبراطورية الرومانية. وكانوا يعتبرون معاوية الذي كان يحكم دمشق الوريث الشرعي للسلالة الغسانية الملكية القديمة. كما أن زوجة معاوية كانت سيدة مرموقة من قبيلة في جنوب الجزيرة هي قبيلة بني كلب (المسيحية) وكانت هذه القبيلة يومها أقوى قبيلة في سورية، وأما إبنه منها يزيد وخلفه على العرش فكان يتمتع، والحالة هذه، بحماية قبيلتها...

وكانت مجموعة القبائل الآرامية الخاضعة تعيش على علاقات طيبة مع العرب الذين خبرتهم منذ زمن طويل. ولم يكن هؤلاء العرب، وعلى ما هي

2 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 219.

الحال في العراق، يسكنون في مستوطنات منشأة حديثاً بل في مدن كبرى ووسط المسيحيين، ممن كانوا يمارسون معهم هنا وهناك، عبادتهم الدينية تحت سقف واحد. وفي بلاط معاوية كان المسيحي سرجون ب. منصور يلعب دور مستشار مالي كبير الشأن. وكان المسيحيون يردون جميل التسامح هذا إلى معاوية وأسرته بالتعلق المخلص بهم»[3].

ومن المؤشرات الأخرى الدالة على التعاون العربي الآرامي: أن معاوية، أسوة بما فعله الفرس الأخمينيديون في الماضي، إستخدم المهارات البحرية لدى سكان الشاطىء اللبناني السوري وإستعملها ضد سيد الأمس: الأمبراطور البيزنطي.

### ج ـ عرب الشمال وعرب الجنوب

إن الأسرة الأموية إعتمدت في تأسيس قوتها على القبائل العربية من بدوية أو مستقرة في المجالين السياسي والعسكري. وإن هذا الدور في دعم الخلافة الذي لعبته القبائل العربية السورية والتي لم تكن قد نسيت شيئاً من تقاليدها الخاصة أو نزاعاتها القديمة العهد، دفعها حتماً إلى نزاعات داخلية بين عرب الشمال (قيسيين) وعرب الجنوب (كلبيين) وستستمر تلك النزاعات طوال فترة حكم الأمويين بأكملها.

«ويبدو بأنه كان يوجد سابقاً معارضة على أساس عرقي بين عرب الشمال، وهم شرقيون صرف وعرب الجنوب وهم مزيج أعراق»[4]. وإن مجموعة القبائل القيسية وهي قبائل شمال الجزيرة إستقرت في شمال سورية وبلاد ما بين النهرين والعراق ومجموعة قبائل كلب، وهي قبائل من جنوب الجزيرة، إستقرت بين تدمر وشرق الأردن. وإن النزاعات القبلية الدموية التي كانت تقع بإستمرار بين هاتين المجموعتين من القبائل سوف تمتزج وتختلط بالعوامل الجغرافية التي تفصل بين سورية والعراق.

### د ـ الخليفة الأموي والعرب

كان خليفة دمشق إذن يمثل في نظر القبائل العربية التي تقطن سورية والسوريين الذين اعتنقوا الإسلام وتضامنوا مع تلك القبائل «شيخاً أعلى» أو

3 Brockelmann, *op. cit.*, p. 69.
4 Brockelmann, *op. cit.*, note p. 73.

«ملكاً بدوياً» على اتصال دائم بالعناصر الممثلة للبلاد. وهو «يتبع على الطريقة البدوية سياسة التقلب والمكائد بين العناصر المتنافسة: ومانحاً الهدايا، أو القيادات العسكرية أو حكومات المناطق أو عاقداً الزيجات، كل ذلك من أجل كسب ود تلك المجموعات غير المستقرة أو المقلقة أو أقله لكسب حيادها.

«ولم يكن معاوية على أي حال يحكم رعاياه العرب كطاغية شرقي بل كسيد قبيلة. وقد درج على عادة شرح قراراته السياسية خلال خطبة يوم الجمعة في المسجد ومن على المنبر الذي كان يستخدمه كمنصة خطابة أكثر مما يستعمله كمنبر. وكان فضلاً عن ذلك يوضح مواقفه لرؤساء النبالة الذين يدعوهم الى مباحثات منتظمة في قصره»[5].

### هـ ـ الخليفة الأموي ورعاياه من غير المسلمين

حيال الشعوب التي لم تعتنق الإسلام والتي كانت ما تزال تشكل غالبية سكان الأمبراطورية ظلت خلافة دمشق تطبق سياسة الحماية التي بدأها خلفاء المدينة والتي بمقتضاها كان الرعايا ممن لم يعتنقوا الإسلام يعتبرون من الدرجة الثانية. غير أنهم كانوا يحتفظون بتنظيمهم الديني والاجتماعي، وكنائسهم ومحاكمهم ويكونون «محميين» من قبل الخليفة شرط خضوعهم وتسديدهم الضريبة القانونية. وكان رؤساؤهم الروحيون من بطاركة وحاخامين يتولون إدارة شؤون العدالة بين أبناء دينهم طالما لا تتعارض هذه الممارسة مع مصالح الدولة.

ومن جهة أخرى وفي ما يتعلق بمصالح الدولة التقنية منها وبخاصة المالية كان المسيحيون يشغلون مناصب عديدة ورفيعة الشأن. «فالمكاتب كانت تعج بالكتبة المسيحيين» (ميز). أضف أن المسيحيين الذين كانوا يشكلون عنصراً أساسياً في حياة الأمبراطورية الاقتصادية كانوا موضع عناية خاصة من جانب الخليفة الذي ثابر على التقليد الذي اتبعه الأباطرة البيزنطيون فكان يستقبل رؤساء إكليروسهم في مقابلات عديدة وحتى أنه كان ينصب نفسه الحكم الأعلى في الخلافات التي كانت تطرأ بينهم، وحتى الدينية منها. «إنه حقاً لواقع جديد هذا الاهتمام من قبل الخليفة بشؤون المهزومين، إنه بداية لعملية توحيد للأمبراطورية. فالمؤرخون المسلمون لا يخطئون أبداً عندما يرون في ذلك ممارسة لسلطة ملكية لا لسيادة خليفة»[6].

5 Brockelmann, *op. cit.*, p. 69-70.

6 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 180.

وهكـذا خلافـاً لما كـانت عليه الحـال لدى خلفـاء المدينـة الأكثر انشغـالاً بالقيادة الدينية منهم بالقيادة السيـاسية أو العسكـرية «فـالجانب الـزمني كان هـو الغـالب على الجـانب الروحي لـدى الخليفة الأمـوي». ويجـدر التـذكـير هنـا أن المـركز الـديني لأمبراطـورية الأمـويين التيـوقراطيـة هـذه لم يكن في دمشق، مقـر خليفـة النبي، بـل في مـدينتي الإسـلام المقـدستين في الحجـاز. فكـان الخليفـة الأمـوي، وهو ممثـل مؤسس دين وأمير المؤمنـين، يـرئس صـلاة يـوم الجمعـة في المسجد ويلقي فيه الخطبة. ولكن تلك الممارسات كانت تعد غير كافية من جـانب الدينيـين. فتحرر الأمـويـين «صـدم المؤمنـين الـذين ظلوا أمنـاء لتقشف الأيام الأولى فما كان من المدينة المتشددة إلا أن أدانت دمشق تماماً كما أدانت جنيف في القرن السادس (أيام الاصلاح الديني المسيحي) روما»[7].

إن الطابع المتسـامح الـذي هو سياسي أكثر مـا هو ديني والـذي ميز نهج خليفة دمشق عن أسلافه خلفاء المدينة وأخلافه خلفاء بغداد الذين تميّزوا بكونهم مسلمين أكثر مما هم عرب يعود بخاصة الى واقع أن الخلفاء الأمويين المتحدرين من أسرة أرستوقراطية ونصف بدوية، هم ككل البدو أكثر تأثراً بالرابطة القبلية من تأثرهم برابطة الطائفة الدينية. وقد رأينا أن البدوي ليس متعصباً دينياً على الإطلاق وهو يهتم بالسياسة أكثر مما يهتم بالدين وهو يميل الى السيادة أكثر مما يميل للدعوة الى الدين وتلك صفة خاصة بالحضر وهو يرذلهم.

ومن المفيـد هنا أن نـذكر أيضـاً أن القريشيـين الذين كـانوا قبـل الإسلام يمارسون حيـاة تجار نشـطين «في جمهوريـة مكة التجـارية كـانوا مؤهلين لمستقبـل كبير في هذا القطاع».

وإن هؤلاء القريشيين، أجداد الأمويـين، حاربـوا في البدء محمـداً ﷺ إبن قبيلتهم ولم يوالوا دعوته إلا بعـدما أخـذت عقيدتـه تنتصر. والى هـذا فإن نصـر معاوية عـلى علي كـان، كما نعلم، نصـر رؤساء القبـائل عـلى صحابـة النبي ﷺ وأنصـاره. وأخيراً فـإن الأمويـين، وقد استقـروا منـذ بـدايـة أيـام الفتـح وسط الشعوب الآرامية والمسيحية واليهودية السورية، نما فيهم في ذلـك الوسط الـطبع الدمث والعملي الذي تميزوا به.

7 Massé, *op. cit.*, p. 50.

### و ـ مقار الخليفة الأموي

كان الخليفة الأموي بصفته قائد العرب وملك سورية يعيش حياة تتميز بالتجوال وهو استمرار لحياة أجداده البدوية، كما يعيش حياة مدينية تستشف منها حياة الملك الحضري خلف ملوك بيزنطية وكتيزيفون الشرقيين.

وبعيداً عن هموم الحكم، كان الخليفة يغادر مدينة دمشق الى أحد قصوره القائمة على تخوم الصحراء ليمارس هواية الصيد. ومن أشهر تلك القصور قصر المشتى وقصير عمرة في شرق الاردن. وقد حوّل الأمويون العديد من القلاع الرومانية المتناثرة على تخوم الصحراء الى قصور.

وكان بوسع الخلفاء التغيب ما شاؤوا عن عاصمتهم، فكانوا يتركون إدارة البلاد عن حكمة أو لامبالاة في عهدة مجموعة موظفي الدواوين التقليدية وقد كانوا من السكان الأصليين وهم متمرسون بأساليب بيزنطية وساسانية ويمارسون مهامهم الى جانب أو تحت إدارة موظفي الخليفة. فالخليفة سليمان (٧١٥ ـ ٧١٧) ومعظم من جاء بعده من خلفاء لم يعودوا يقيمون في دمشق «فبعدما تحول معظم أهلها الى الإسلام يبدو أنها غدت غير ملائمة لسكنى سادتها».

### ز ـ دمشق عاصمة الأمبراطورية الأموية

إن الحجاز، هي كاليونان وإيران، منطقة بعيدة جداً عن الوسط وهو ما يجعلها غير صالحة لأن تكون مركزاً سياسياً لأمبراطورية شرقية واسعة. لذا، وكما ان توسع اليونان ـ المقدونيين والفرس خارج حدود بلادهم كان من نتيجته أن تخلى كل من هذين الشعبين عن عاصمته القومية (أثينا وبرسيبوليس) لصالح عواصم جديدة تقع في الشرق نفسه (الاسكندرية، أنطاكيا، كتيزيفون) كذلك فإن التوسع العربي ـ الإسلامي خارج جزيرة العرب أطاح التفوق السياسي الذي كانت تتمتع به المدينة والحجاز لصالح الشرق التقليدي (دمشق ومن ثم بغداد).

ولكن وبرغم كونها أفضل موقعاً من المدينة ومكة فإن دمشق التي حلت محل المدينة كعاصمة سياسية، لم تكن المركز الاقتصادي في الأمبراطورية العربية ـ الإسلامية. بل كان يجب أن يحدد مقر هذا العالم الواسع، طبيعياً، في سهول دجلة والفرات القديمة، قرب بابل أو كتيزيفون (المدائن). فالفرس

الأخمينيديون استقروا في سلوقيا على نهر دجلة، والاسكندر في بابل، والفرس الساسانيون في المدائن، وسوف يستقر الخلفاء العباسيون في بغداد.

بالنسبة الى الخلفاء الراشدين والأمويين فإن ظروفاً عارضة حدث بكل منهما الى إقامة مقر حكمه بعيداً عن سهول ما بين النهرين التاريخية. فالمدينة فرضت نفسها على خلفاء محمدﷺ الأول نظراً الى مكانتها كعاصمة الرسولﷺ والعاصمة الدينية للإسلام الفاتح. وأما دمشق فغدت عاصمة الأمبراطورية العربية ـ الإسلامية الفتية، بفعل مصادفة أخرى كما نعلم. لذا فدور العاصمة الأمبراطورية هذا والذي توالت عليه المدينة ودمشق كان بالضرورة موقتاً حيث أن الأولى لم تستمر فيه إلا ٣٠ عاماً والثانية تسعين عاماً تقريباً.

فدمشق، تدين الى حسن طالعها الموقت والى أسباب ظرفية عديدة: فمعاوية، وقبل فترة طويلة من توليه الخلافة والذي حكم سورية بدءاً من العام ٦٣٧، كان قد جعل إقامته منذ ذلك التاريخ في مدينة دمشق، مقر الحكام البيزنطيين القدامى. ومن جهة أخرى، فإن معاوية، وبعد نصره على علي الذي وَالَى العراق قضيته، لم يعد بوسعه نقل عاصمته الى بلاد بابل ـ كلده القديمة التي كان سكانها قد حاربوه لتوهم وسيظلون باستمرار يضمرون ثورة ضده. وأما السوريون، على العكس من ذلك، فقد كانوا من أشد أنصاره حماسة.

وعلاوة على ذلك كانت دمشق، بالنسبة الى الأمويين الأولين الذين كانوا ما يزالون عرباً أقحاحاً، واحة تقوم عند أبواب الصحراء السورية العربية، الموطن الخالد لدى القبائل العربية. وكما لعبت أنطاكية، لقربها من البحر دور العاصمة بالنسبة الى اليونان والرومان والبيزنطيين فقد لعبت دمشق الدور نفسه بالنسبة الى العرب. وأخيراً فإن الصراع الذي كان على الخلفاء الأمويين الاستمرار به لفترة لاحقة ضد العدو البيزنطي، لا سيما الحملات البحرية ضده، جعل حكام الأمبراطورية يقررون البقاء على واجهة البحر المتوسط الشرقي.

## ٢ ـ تعريب العالم الشرقي وأسلمته

إن الشرق المتوسطي الذي بقي طيلة ألف عام من السيادة اليونانية ـ الرومانية والفارسية محتفظاً بلغاته وثقافاته ومعتقداته الدينية الخاصة به سيتحول

خلال فترة الخلافة الأموية، كما قلنا، وبأغلبيته الساحقة الى الدين الإسلامي ويعتمد اللغة العربية.

### أ ـ الظروف الخاصة التي صادفت التعريب

إذا كان العرب لم يقدموا، أسوة بالجرمان في الغرب، على اعتماد لغة الشعوب المحتلة فلأن اللغة العربية، لغة الفاتحين، هي أيضاً لغة القرآن الكريم والإسلام المقدسة. فهذا الطابع المقدس الذي تتمتع به اللغة العربية هو الذي كان السبب الرئيسي وراء انتشارها في البلاد المحتلة وحلولها محل سائر لغات السكان الأصليين، التي هي على أي حال قريبة منها لا سيما الآرامية في سورية وبلاد ما بين النهرين والقبطية في مصر. وكان ذلك التبدل السريع نسبياً هو الذي أعطى الانطباع بأن العرب قد استوعبوا السكان الأصليين.

إن تحول العالم الشرقي الى اللغة العربية فضلاً عن تحوله الى الإسلام لم يتما، كما قلنا، إلا تدريجاً عبر العصور. وطوال فترة خلافة المدينة كلها ثابرت الإدارة على استخدام اللغة اليونانية في مقاطعتي سورية ومصر البيزنطيتين سابقاً حيث كان السكان الأصليون في غالبيتهم من غير المسلمين. وبقيت العملات البيزنطية أيضاً متداولة ولم يتغير هذا الوضع إلا العام ٧٠٠ أي بعد ستين عاماً من فتح الشرق المتوسطي عندما فرضت اللغة العربية كلغة رسمية للإدارة في جميع أنحاء الأمبراطورية.

وحتى بعد العام ٧٠٠ بقيت لغات السكان الأصليين ولفترة طويلة هي اللغات الشائعة لدى السكان الأصليين. ولم يبدأ المصريون ينسون لغتهم الأم إلاّ في مطلع القرن الحادي عشر. وحتى ذلك الوقت فإن الطبقة الوسطى التي ظلت مسيحية لم تكن تتكلم إلا اللغة المصرية أو القبطية. وقد ظلت هذه اللغة حتى يومنا هذا اللغة الدينية بالنسبة الى الطوائف المصرية التي ظلت مسيحية.

وفي سورية وبلاد ما بين النهرين، كما علمنا، فإن التحول الى اللغة العربية كان أسرع من جهة نظراً لمجاورة تلك المنطقتين عرب التخوم الصحراوية حيث استقروا لقرون عديدة قبل الإسلام ومن جهة أخرى نظراً للقرابة بين اللغتين العربية والآرامية (السريانية والكلدانية). غير أنه برغم هذه الظروف الملائمة فإن أجزاء أو تقطيعات الهلال الخصيب الجغرافية التي

آوت منذ القدم مجموعات عرقية ودينية متميزة احتفظت حتى مرحلة متقدمة، وبعضها حتى المرحلة المعاصرة بتداول اللغات الآرامية. وما تزال هذه اللغة الآرامية مستخدمة الى اليوم كلغة دينية من جانب طوائف مسيحية شرقية عديدة كالموارنة والأشوريين ـ الكلدان، إلخ . . .

وإذا كانت اللغة العربية، التي انتهت بالحلول محل اللغات الآرامية والقبطية، في هذا المجال أسعد حظاً من اللغة اليونانية، فالسبب، كما أسلفنا، يعود الى أن العالم الشرقي ـ الأفريقي بدا دوما، ومنذ الأصول، مقاوماً للغات غير السامية. ففي الهلال الخصيب ومصر وشمال أفريقيا فإن المؤسسات اليونانية ـ الرومانية لم تفلح في النفاذ إطلاقاً الى عامة السكان الأصليين حيث بقيت الثقافة القومية نشطة برغم ركودها. وحدها المدن تحولت الى اليونانية في حين بقي سكان الأرياف يعيشون خارج نطاق عمل الفاتحين اليونانيين ـ الرومانيين.

وفي مصر البلد الحامي فالتحول الى العربية يمكن تفسيره بالقرابة القائمة بين اللغات الحامية ـ البربرية واللغات السامية. واللغة العربية، كونها شقيقة اللغة الآرامية، فهي تنتسب الى اللغة المصرية القديمة. وقد كشف العلم الحديث عن وجود اثار عديدة للسامية في المصرية القديمة.

فتلك القرابة بين اللغات السامية والحامية هي التي سمحت في الماضي للغة السامية ـ الفينيقية بأن تتوطد في مناطق الشمال الأفريقي والذي كان فينيقيو لبنان قد استوطنوه في النصف الأول من الألف الأول ق.م. إن ذلك الوسط وتلك القرابة هما اللذان سمحا في شمال أفريقيا وإسبانيا لاحقاً،للغة العربية بأن تحل في تينك المنطقتين محل اللغة السامية ـ الفينيقية أو البونية التي مهدت لها الطريق ومحل اللغات الحامية ـ البربرية. هكذا أيضاً وفي المجال الثقافي فإن العالم الشرقي والشمال الأفريقي مثلما أظهر دوماً مقاومته للغات غير السامية (هندو ـ أوروبية، تركية، الخ . . .) كذلك فإن اللغات السامية ـ الحامية لم تتمكن أبداً من الرسوخ خارج مناطقها الخاصة. وللتأكد من ذلك يكفي أن نلاحظ كيف أن مدى انتشار اللغة العربية ينطبق تماماً على المساحة الجغرافية التي كانت تنتشر عليها اللغات السامية والحامية التي سبقتها في العالم القديم: الهلال الخصيب، مصر، شمال أفريقيا. وأما عند الطرف الشمالي من الهلال الخصيب فإن اللغة العربية توقفت عند خط وهمي يمتد من أنطاكية الى حلب. وشمال هذا الخط فإن أسماء الأمكنة التي هي اليوم تركية كانت في

زمن الفتح العربي آسيوية الأصل. وجنوب ذلك الخط فإن الأسماء العربية هي في معظمها أسماء سامية قديمة تم تحويلها الى العربية.

وهكذا وفي حين أن سيطرة العرب السياسية ودينهم الاسلامي قد أمكنهما تخطي الإطار الجغرافي الذي يحدد المنطقة السامية الحامية إلا أن اللغة العربية في المقابل لم تتمكن من الخروج من حدود ذلك الإطار وبخاصة ناحية الشمال (إيران، الأناضول، إيطاليا، اليونان، إسبانيا الشمالية وهي مناطق لغات آسيوية وهندو ـ أوروبية.

وعلى الهضبة الإيرانية حيث لم يسبق للسامية أن تأصلت فيها أبداً فإن اللغة العربية لم يكن نجاحها أفضل برغم أسلمة تلك المنطقة. وما لبثت بلاد فارس التي أسلمت، وبعد مرحلة تعريب جزئي وسطحي، أن تخلت عن لغة الإسلام المقدسة كي تستعيد لغتها القومية القديمة.

**ب ـ الظروف الخاصة التي رافقت الأسلمة**

من جهة أخرى، وإذا كان الإسلام، الأوفر حظاً من المسيحية، قد انتشر بسهولة في آسيا وأفريقيا، فذلك لأن هذا الدين بسبب توحيده الإلهي المطلق وعقيدته التيوقراطية (حكم إلهي) يتناسب أكثر، كما رأينا، مع عقلية الشعوب الشرقية وتطلعاتها وبخاصة القارية منها والتي يسودها الشعور السياسي الديني في مجرى حياتها.

ورأينا أيضاً أنه وفي داخل البلاد السورية والمصرية وبعيداً عن الوسط المتوسطي كانت تظهر دوماً ردة فعل السكان الأصليين ضد الهيمنة الغربية. وهنا أيضاً وأيام السيادة البيزنطية توطدت العقيدة المسيحية المونوفيزية، عدوة عقيدة استقامة الرأي اليونانية، بكل حماستها وعنفها. وهؤلاء المونوفيزيون، من سوريين ومصريين، هم من سهّل دخول العرب الى بلدانهم والاستقرار فيها.

في ذلك العصر، كما رأينا، كان الشرق المسيحي منقسماً حول طبيعة يسوع الإلهية والبشرية. وكان رجال الدين والملافنة وعلماء الكلام والمنطق، المستندون الى الجدلية الإغريقية، يعالجون بإسهاب هذا الموضوع ويتقاتلون من أجله. فالمونوفيزيون، أعداء اليونان الذين كانوا يخلطون بين طبيعتي المسيح، غلّبوا الطبيعة الإلهية. لذا فالإسلام الذي يجعل من يسوع (عيسى) أعظم الأنبياء لا يبدو لهم سوى طائفة مسيحية جديدة. وعندما قارن المسيحيون

المونوفيزيون بين العقيدة البيزنطية القائلة بالطبيعتين والمونوفيزية الشرقية رأوا التوحيد الإلهي الإسلامي أقرب الى عقيدتهم. فالله بالنسبة الى المسلمين هو الاب. وعوض أن يكون يسوع هو الابن فهو أعظم أنبياء الله. هذه العقيدة الإسلامية بدت للمونوفيزيين محاولة توفيقية (تسوية) يقبلون بها أكثر من عقيدة الطبيعتين اليونانية، فاندفعوا لموالاة المسلمين بسهولة.

وخلافاً لليونانيين ـ الرومانيين الذين استقروا في المدن فإن العرب الذين كانوا يألفون سكن المجمعات المدينية، استقروا بخاصة في الأرياف والسهول الكبرى حيث كانوا على اتصال مباشر بعامة السكان الأصليين وامتزجوا بهؤلاء السكان وتزوجوا من بناتهم. ففي هذا الوسط الأقرب الى القاري والأكثر تقبلاً للسلطة الثيوقراطية والتوحيد الإلهي نجح الإسلام في كسب أخلص مؤيديه خارج جزيرة العرب.

فالمجموعة العلمانية التي يشكل فيها المجال الديني والمجال المدني نطاقين منفصلين فضلاً عن القول بالطبيعتين حيث أن كلاً من الطبع الإلهي والطبع البشري يشكلان طبيعتين متميزتين في يسوع، فهما بعيدان كل البعد عن العقلية الشرقية وخصوصاً القارية.

إن مقاومة الإسلام ستكون أمضى في الجبال وبخاصة في المدن وعلى الساحل حيث وجدت الثقافة اليونانية ـ المسيحية وسطاً ملائماً وحيث يتم الانصهار بين الغالبين والمغلوبين تدريجاً وببطء.

يبقى أن أسلمة البلدان المحتلة وتعريبها وإن كانت ابطأ من انتشار العرب السياسي والعسكري، إلا أنهما حصلا بسرعة قياسية. إذ لم يسبق أن نجح أي دين أو لغة في الانتشار بمثل هذه السرعة، سواء في أوساط النخبة أو عامة الشعب وفي منطقة جغرافية بمثل هذا الاتساع الكبير.

## ٣ ـ الفاتحون العرب يتحولون الى الشرقية

إن الشعوب الشرقية التي أسلمت وتعربت، في معظمها خلال عصر الخلافة الأموية، حافظ كل منها أو استعاد تدريجاً طبائعه الوراثية القديمة أو القومية. وإن حياتها الثقافية والإجتماعية لم يؤثر فيها التغيير اللغوي والديني إلا سطحياً. كما أن طبائعها النفسية الخاصة لم تتغير إلا مؤقتاً بفعل امتزاجها مع الفاتحين. وقد كان من نتائج امتزاج السكان الأصليين بالشرقيين والعرب المهاجرين خصوصاً تجديد الدم الشرقي القديم الى فترة زمنية.

إن الشرقيين الذين كانوا يشكلون الأكثرية الساحقة من السكان بالنسبة الى الفاتحين العرب هم بالأحرى مَن احتوى هؤلاء الفاتحين العرب وطبعهم مع الزمن بالطابع الشرقي. ومع وصول الخلفاء الأمويين الى السلطة فإن الشرق المتوسطي سيستعيد مكانته ودوره وثقافته وماضيه التاريخي وقد كسفته حتى ذلك التاريخ الهيمنة البيزنطية والفارسية وفي الفترة الأخيرة العربية الحجازية. إن الدور الذي لعبته غالباً في الماضي ولفترة طويلة بلاد ما بين النهرين أيام الأمبراطوريات الشرقية القديمة كعاصمة للعالم الشرقي انتزع من المدينة التي كانت قد استأثرت به حديثاً. وبعد استراحة موقتة في دمشق (٦٦١ - ٧٥٠) فإن هذا الدور سيعود قريباً الى مركزه الطبيعي القديم أي وادي بلاد ما بين النهرين التاريخي. وستكمل بغداد دور كتيزيفون (المدائن) وبابل.

### أ ـ الفاتحون ينصهرون في الشعوب المحتلة

إن الأمبراطورية الأموية التي قام العرب بتأسيسها وإدارتها تحولت بسرعة الى دولة عربية ـ سورية وستصبح مع مرور الزمن أمبراطورية شرقية أكثر فأكثر. إن العرب الذين استقروا في البلدان المحتلة، وعددهم ضئيل جداً قياساً الى عدد السكان الأصليين، تم احتواؤهم تدريجاً من جانب هؤلاء السكان الأصليين. ومن جهة أخرى فإن الظروف الطبيعية في مختلف البلدان التي استقر فيها الفاتحون، ستسم ذريتهم تدريجاً بالطابع المميز لسكان كل منها الأصليين.

ويقدر المؤرخون عدد عرب الجزيرة العربية الذين انتشروا خلال عقود عديدة على المساحات الواسعة التي احتلتها جيوشهم كحد أقصى، بمايتين أو ثلاثماية ألف شخص. غير أن الحروب خفضت عددهم بشكل ملحوظ، إذ أن عدداً كبيراً من هؤلاء الفاتحين الشجعان الذين اندفعوا نحو مقاطعات العالم القديم هلكوا وسط تلك المساحة الشاسعة الممتدة من الهند حتى إسبانيا. وأياً كان عدد الناجين فإنهم كانوا قلائل عددياً مما سهل احتواءهم من جانب مجموعة السكان الأصليين التي كانت تعد عشرات ملايين البشر.

لقد كان هؤلاء السكان، أي الأكثرية الساحقة من شعوب الأمبراطورية العربية، يستأثرون بالقوة الانتاجية: الزراعة والصناعة والتجارة بل وحتى جزء كبير من الإدارة المدنية والمالية في الدولة. فالفاتحون العرب، وقد أصبحوا بين ليلة وضحاها بالغي الثراء والذين كانوا يشكلون أقلية حاكمة، كانوا يعيشون

في المدن والمعسكرات. وأما أكثرهم نشاطاً فكانوا من بطانة الخليفة أو يحتلون مناصب السلطة. كما أنهم، ومنذ الفتح، تحولوا الى خلاسيين شيئاً فشيئاً إثر امتزاجهم بالسكان الأصليين.

وكان الخلفاء أنفسهم من أصول عرقية مزيجة. فعثمان وعلي ومعاوية ويزيد، إلخ... تزوجوا جميعاً من نساء مسيحيات. «ومع استمرار السلالة الأموية غدا ملوكها أقل عروبة. صحيح أن زوجات أفراد تلك السلالة كن من بنات الأسر البدوية القديمة أحياناً ولكنهن كن غالباً من الأجنبيات»[8]. وقد رأينا الخليفة يزيداً الثاني (٧٢٠ - ٧٢٤) يعتدّ بكونه سليل أبي مروان وكسرى وقيصر بيزنطية وخاقان الترك.

ب - إستمرارية السكان الأصليين في المناطق المستعربة

لقد رأينا سابقاً، وبخاصة في مقدمة المجموعة (الجزء الأول) أن الطبائع الأساسية عند شعب ما، سواء الجسدية أو النفسية منها هي عموماً بمثل ثبات أوضاع البيئة الطبيعية التي شكلتها. إن طبائع مجموعة عرقية ما، وهي نتاج عمل مزدوج قام به الوسط الجغرافي، وهو ثابت نسبياً، وعامل الوراثة، هي من حيث المبدأ دائمة نسبياً. وللأسباب نفسها فإن مجموعة ما تنتقل إلى منطقة مختلفة عن موطنها الأصلي سرعان ما تتغير على المدى الطويل بفعل تأثير الوسط الجديد وعامل التزاوج العرقي، وتصبح مع مرور الوقت من السكان الأصليين الشرعيين.

إن التأثير المبوتق الذي يقوم به الوسط الجغرافي يؤكده التاريخ ويثبته، كما رأينا، علم الآثار. فالهياكل العظمية المتحجرة المستخرجة من باطن الأرض في أفريقيا الشرقية وأوستراليا وأميركا الشمالية والجنوبية تظهر تشابهات وثيقة مع السكان الأصليين الحاليين في تلك البلدان كما أن سيماء وجوه المصريين والأشوريين والحثيين القدماء عامة والظاهرة على منحوتات أو رسوم نصب تلك الشعوب تشبه إلى حد بعيد سيماء وجوه خلفائهم المعاصرين.

وما من ريب بأن بعض المجموعات العرقية، والتي نقلت وإستقرت في وسط جغرافي جديد، تثابر أحياناً ولفترة طويلة، وبرغم امتزاجها بالسكان

8 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 219.

الأصليين، على إظهار طبائع موروثة عن الجدود المستوطنين أو طبائع تجمع بين طبائع عناصر تكوينها. ولكن في الحقيقة فإن هذا الرسوخ ليس إلاّ ظاهراً ونسبياً. فالمدة القصيرة التي تستغرقها الحياة البشرية لا تسمح لنا بأن نتبين التغييرات التي حصلت عبر العصور. وما الأشكال الحالية التي تبدو فيها تلك المجموعات سوى مرحلة محددة، أو لحظة من تطورها نحو الشكل النهائي الذي يطبعها به الوسط الجغرافي.

وما لا يمكن إنكاره أن الإمتزاج العرقي يولد غالباً تغييرات متفاوتة العمق بحسب ما إذا كان عدد أفراد مختلف الأعراق المتهاجنة شبه متعادل أو إذا كان عدد المستوطنين الغرباء يفوق عدد السكان الأصليين. ولكن هذا التغيير الذي هو من حيث المبدأ موقت لا يطال عامة سوى الطبائع الثانوية في العرق (لغة، دين، ثقافة، نمط الحياة، المؤهلات الخاصة، إلخ...) وحتى عندما يصيب التغيير الطبائع الأساسية أو الجوهرية (طاقة، إرادة، ميول، عواطف، أهواء، إلخ..) فكلها، وخلال مدة زمنية متفاوتة الإمتداد، سوف تستعيد وتحت تأثير الوسط صفاتها العامة السابقة.

«مثلاً لو أدخلنا عدداً ضئيلاً من الأشخاص البيض وسط شعب من السود، فإن هذه الأقلية البيضاء سرعان ما تختفي من غير أن تترك اثارا بعد بضعة أجيال... ولهذا السبب فإن الشعوب الفاتحة تختفي إذا كان عددها قليلاً بالنسبة إلى عدد الشعوب المحتلة. وهذا مثلاً ما حصل للرومان في بلاد الغال. فنحن حقاً أبناؤ هم من حيث الحضارة واللغة ولكن ليس من حيث العرق. وهذا أيضاً كان حال العرب في مصر... فالفلاح المصري الحالي، الذي ظل عربياً من حيث دينه ولغته، هو في الواقع ابن مصريي عصور الأهرام، ناهيك بأنه صورتهم الحية»[9].

ومثلما كان الوضع في مصر كان كذلك في سورية وبلاد ما بين النهرين البلدين القديمين. فقد كان عدد عرب الجزيرة، بمن فيهم عرب القبائل السابقة للإسلام والتي كانت تعيش في الصحارى السورية المابينهرية قليلاً نسبياً في مقابل عدد الآراميين والكلدان وسواهم من الحضر سكان الهلال الخصيب الأصليين. وإن عرب الجزيرة ما لبثوا، إثر إمتزاجهم بهؤلاء السكان

9 G. Lebon, *op. cit.*, p. 26, 27.

وإختـلاطهم بهم بعـد أن أعـطوهم لغتهم ودينهم، أن فقـدوا هم تـدريجيـاً طبائعهم المميزة.

إن اللبنانيين الحاليين، وقد بوتقتهم عوامل جغـرافية ثـابتة، إحتفـظوا هم بـدورهم بعدد كبـير من صفات الفينيقيـين القدمـاء الذين سبقـوهم عـلى أرض لبنـان. «وتجدر الإشـارة هنا إلى أن مـا إختفى هي المراكب والتقـاليـد البحـريـة ولكن ليس العـرق الفينيقي. فهـذا العـرق بمـا يتصف بـه من مـرونـة عـرق مـالي... إعتاد العيش مـع الـظروف الجـديـدة. وإن الفينيقيـين الحـاليـين هم اللبنـانيون الـذين لم يعـودوا بحـارة، ولكن وعـلى هـذا السـاحـل حيث إنتقلت حركة النقل البحري عبر العصور على التوالي من أيدي اليونـان إلى البيزنـطيين، ثم البنـادقة فـالهولنـديين فـالمرسيليـين فالإنكليـز... إلا أن الفينيقيين المتـأصـلي الجـذور ظلوا على هـذا الساحـل وسطاء حتميـين وسمـاسـرة ومـاليـين للتجـارة الكبرى... وبيروت اليوم هي وريثة صور وصيدون»[10].

وهكـذا فإن الفـاتحين العـرب أو من بقي منهم، وبعد مـرور نصف قـرن على إنتشارهم «إنصهروا» في العشرين أو الثـلاثين مليـوناً من السكـان الأصليين غـير العرب الـذين كان يضمهم في ذلـك الحين الشـرق المتوسـطي. وإن هؤلاء السكـان الأصليين الـذين سيتحولـون إلى الإسلام واللغـة العربيـة في معـظمهم سيسمـون فاتحيهم بـدورهم بسمة الشـرق الحضـري القـديمـة. وإن الشـرقيـين والعـرب سيبقون أو يصبحـون سـوريـين أو عـراقيـين أو مصـريـين، إلـخ... وبالطبائع الخـاصة بـأجيال السكـان الأصليين الـذين سبقوهم عـلى هذه الأرض نفـسها.

«إن سـاكن الولايـات المتحـدة الأميـركيـة أصبـح يختلف كثيـراً من حيث طبعه عن الإنكليز الذين تحدر منهم» (لـوبون)، مـع أنه مـا زال يحتفظ بدينهم ولغتهم. إن الإمتـزاج بين العـرب وغير العـرب ومن غير أن يبـدل في الطبـائـع الوراثية لدى الشعوب الشرقية، وسـالكاً طـريقة التـطعيم، أعاد الشبـاب موقتـاً إلى العرق الشرقي القديم وأعطى خـلال جيل أو جيلين نهضـة شرقيـة وحضارة مجددة.

لذا كلما ترسخت هيمنة الشرقيين المستعربـين تدريجـاً على العـرب أنفسهم عاد التنافس القديم السابق للإسلام ليظهر من جديد بـين سوريـة والعراق ومصر

10 Gautier, *op. cit.*, p. 138, 139.

وإيـران. وستكون العـداوات الأعنف، كما قلنـا، بـين البلدان المتـوسـطيـة أي سـورية ومصـر والبلدان القاريـة والآسيويـة أي العراق وإيـران. «وطـوال فتـرة التـاريخ الأمـوي كلها، نـرى القبضة السـورية محكمـة سيطرتهـا على الشعـوب العراقية المشاكسة» (ديمومبين). وهذه السيادة العربية السورية المفروضة بالقوة على العراق ستنتهي بـطريقة مـأساويـة: إذ سيهزم الأمـويون في النهـاية ويُفنـون عـلى أيدي العـراقيين ـ الإيـرانيين الـذين سيدمـرون خلافـة دمشق وينقلون إلى بغداد العاصمة السياسية للأمبراطورية العربية ـ الإسلامية.

## ٤ ـ تنظيم الامبراطورية الأموية

### أ ـ الإدارة

كـانت الأمبراطـورية الأمـوية التي تحكمهـا أرستوقـراطية بـدويـة أو شبـه بـدوية، وعـلى عكس تابعتهـا الأمبراطـوريـة العبـاسيـة، تشكيـلاً سيـاسيـاً تـام اللامركزية. إذ لم يكن يوجد أي نظام محدد يقسم أراضي الدولة إلى مقاطعات أو حكومات.

إن سـوريـة التي يحكمهـا مبـاشـرة قصـر الخليفـة لم يكن فيهـا أي حـاكم عـام. وكانت تضم الـدوائر البيـزنطيـة السابقـة والتي، وبخاصـة في بدء الحكم الأمـوي، ظلت تحكم من جانب مـوظفيها المحليـين القدامى. «ففي سـوريـة، مـركـز سلطة الأمـويـين، أبقى الخليفـة عـلى التنـظيم السـابق وفق التقسيمـات البيزنطية كإطـار لديـوان الجيش: وكانت تلك تقسيمـات عسكريـة ومالـيـة معاً. فكـان هنـاك خمســة أجنـاد ســوريـة هي: قنســرين وحمص ودمشق وفلسـطين والأردن. . . وكـان محـاربـو كـل من هــذه الأجنـاد يشكلون جيشــاً. وفي زمن التراخي. . . كان الخليفة يترك لكل جند حـرية إختيـار قائـده. فكان كـل جند دائرة تجنيد ومصلحة إدارية معاً»[11].

في الشــرق كـان هنــاك حـاكم معــين من قبـل الخليفــة لحكم العـراق والإشراف على المقاطعات الشـرقية من الأمبـراطوريـة (إيران وآسيـا) وكان هـذا الحـاكم يعين ولاتهـا أو قادتهـا. وفي الغـرب كـان حـاكم مصـر المعـين من قبـل الخليفة يختار قادة الحملات العسكرية الأفـريقية. وأمـا مكة والمـدينة فكـان لكل منهما حاكم معين من قبل الخليفة.

11 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 216.

وكان الحاكم، وهو ممثل الخليفة، يمتلك في دائرته سلطات سيده نفسها. فهو ملك صغير أو أشبه بنائب الملك شبه المستقل. وهو في منطقته إمام المسلمين وحامي غير المسلمين ممن يستوفي منهم الجزية. وهو يعين موظفي الدولة وحتى رؤساء السكان الأصليين ويعزلهم. وله صلاحية شن الحرب أو عقد الصلح. وإلى جانب الحاكم كان هناك القاضي ناهيك بجابي الضرائب وكلاهما يعينهما الخليفة.

وبإختصار إذا إستثنينا أعمال التعيين والعزل التي يقوم بها الخليفة تحت ضغط الأحداث أو بحسب مزاجه فإن هذا الخليفة لم يكن يتدخل أبداً في حياة المقاطعات التابعة له بل إن الحاكم المعين من قبل الخليفة كان يعرف أحياناً «بالخليفة» هو نفسه أيضاً.

### ب ـ وحدة الأمبراطورية الأموية الظاهرية

«لقد بلغت الأمبراطورية العربية ذروة مساحتها الأرضية في عهد الخلفاء الأمويين: لا يسعنا تصور كيف يمكن أن يكون لها أي تماسك وهي الممتدة من نهر الجارون حتى الهندوس. غير أننا سنحاول في أقصى حد تقسيمها، كما قلنا سابقاً، إلى جزئين: شرق الصحراء السورية وغربها. جزء متجه ناحية المتوسط والآخر متجه نحو آسيا الشمالية. وكان مصير هذين الجزئين مختلفاً إلى حد أنهما ظلا غريبين عن بعضهما بعضاً وسيتحولان عما قريب إلى عدوين. . . وإن الغرب فيما وراء خليجي سيرت في ليبيا لم تكن له أية علاقة سياسية متينة مع مركز الأمبراطورية»[12]. وبالفعل فإن أفريقيا الشمالية أو المغرب وإسبانيا اللتين لن تكونا البتة فعلياً تحت حكم الخليفة لن تلبثا في الإنفصال عنه علناً. وفي هذه المنطقة الشاسعة التي كان يشكلها مجموع الأمبراطورية فإن القطاع الشرقي بحد ذاته أي الشرق التقليدي أو المتوسطي القديم أو الشرق العربي العتيد كان هو نفسه أيضاً أبعد ما يكون عن الوحدة السياسية أو الحياة النظامية. فمناطقه المختلفة أي سورية وبلاد ما بين النهرين ومصر يشكل كل منها وحدة عرقية متميزة عن الأخرى.

ومن جهة أخرى، فالأمبراطورية العربية الإسلامية بدأت تشهد المتاعب والبذور المرضية التي أوهنت الأمبراطورية اليونانية ـ البيزنطية التي سبقتها. فقد إبتليت الأمبراطورية الأموية بثلاثة عيوب أساسية تبدو وكأنها وراثية

12 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 229.

وستؤدي إلى دمارها وهي: التنافس بين القبائل والإنقسامات الدينية والحركات الإنفصالية أو الإقليمية. وستبدأ صراعات دامية قريباً بين قبائل الشمال (بني قيس) وقبائل الجنوب (بني كلب) ولن تعرف هدوءاً طوال حكم الأمويين. وستختلط تلك الصراعات شيئاً فشيئاً مع إنقسام المناطق الوسطى من الأمبراطورية إلى مجموعتين جغرافيتين متميزتين: سورية والعراق واللتان إعتنق كل منهما عقيدة دينية متميزة عن عقيدة الأخرى: هما السنة والشيعة.

إن مصر، وهي أقدم دولة في الشرق وأكثرها فردية، ومنذ خلافة معاوية ظهرت كدولة تابعة أكثر منها مقاطعة. وإن حاكمها عمروا بن العاص كان نائب ملك شبه مستقل، وكان وادي النيل منطقة نفوذه لقاء دفع رواتب الجنود ومصاريف الدولة. وفي العراق وجزيرة العرب لم تكن إرادة الإستقلال أقل جذوة. وأخيراً فإن الحركات النابذة للمركزية كانت خامدة في كل مكان ومتحينة اللحظة المناسبة لتنزع عن وجهها القناع.

فوحدة الأمبراطورية لم تكن إذن أكثر من ظاهرية ولم تكن تلك الوحدة لتستمر لولا دأب قادتها الكبار الذين كانوا يضفون عليها وحدة شكلية. فالعراق وإيران المتجهان نحو آسيا الشمالية وسورية ومصر المتجهتان نحو المتوسط كانت أقدارهم مختلفة للغاية. وإن هاتين المجموعتين من البلدان، تفصلها بعضهما عن بعض صحراء سورية وقرون عديدة من السيادات المختلفة، ظلتا غريبتين الواحدة منهما عن الأخرى وعلى وشك أن تعاودا عداءهما القديم. وأما بالنسبة إلى المقاطعات البعيدة سواء في آسيا أو أفريقيا فلم تكن لها في أي وقت من الأوقات أية روابط سياسية متينة مع مركز الأمبراطورية. وسوف ينتج لاحقاً تناسق فكري وإجتماعي إثر تحول شعوبها إلى الإسلام.

### ج ـ المجتمع العربي ـ الشرقي تحت حكم الخلفاء الأمويين

إن نقطة ضعف الأمبراطورية العربية ـ الإسلامية لا تختلف عن سابقاتها الأمبراطوريات الشرقية القديمة، وهي تتلخص في كونها فسيفساء من الشعوب والقبائل المتجاورة. ففي الأمبراطورية الأموية كان المجتمع مؤلفاً أولاً من طبقة الفاتحين العرب الذين ظلوا متجمعين في قبائل.

وكانت الطبقة الثانية طبقة معتنقي الدين الاسلامي والمرتبطين بصفة موالين (أنصار) بهذه أو بتلك من القبائل العربية القديمة. وبرغم أن لهؤلاء الموالين نظرياً

حقوق الفاتحين نفسها إلا أنهم في الواقع كانوا يعاملون كطبقة دنيا. ويتضح من هذا أن الأمر لم يكن يتعلق بمسلمين وغير مسلمين بل بغالبين ومغلوبين.

«وقد عمل معتنقو الاسلام الجدد هؤلاء، وبفعل انعطاف فريد، على تطوير الإسلام ومَدّه بالفكر والفلسفة وتأسيس علم الدين الإسلامي كونهم كانوا يمتلكون تقاليد علماء الدين . فقبل الفتح الإسلامي كان هناك وسط مسيحي هو وسط المدارس اللاهوتية والقضائية في أنطاكية وبيروت وقَدس والإسكندرية وغزة. وقد أدخل هؤلاء المعتنقون الجدد للإسلام عادات فكرية كانت غريبة عن البدو. . . وسينتج عن هذا الاتصال وعلى الضوء الثابت للفكر اليوناني علم دين إسلامي عقلاني سيكون له في الشرق والغرب مراكز ثقافية عليا. وإن الصراع الديني الكبير حول حرية خيار الإنسان إنما نشأ في أيام حكم الأمويين وكان لهؤلاء المعتنقين الجدد للإسلام دورهم الكبير فيه»[١٣].

وأما الطبقة الثالثة فكانت طبقة السكان الأصليين من غير المسلمين، وكان التمييز بين أهل الكتاب (مسيحيين ويهوداً) والوثنيين قد توقف حيث كانوا جميعاً أهل ذمة متمتعين بالحماية ويحق لهم ممارسة عبادتهم لقاء دفع جزية الرأس والضريبة العقارية. وأخيراً كان غير المسلمين يخضعون لبعض الواجبات والنواهي، وفي المقابل كانوا يلقون الحماية التي يلقاها المسلمون في أشخاصهم وأموالهم. لكنهم كانوا يشكلون طبقة إجتماعية أدنى وتلك نتيجة طبيعية للكبرياء الأرستوقراطية السائدة لدى طبقة الفاتحين.

## ٥ ـ الأمبراطورية الأموية وبيزنطية

رأينا أنه ومنذ الفتح الروماني وحتى إنحطاط ملكية السلوقيين اليونانية ـ السورية، كانت الطريق البرية بين البحر المتوسط وإيران مقطوعة عملياً. فالإضطرابات وإنعدام الأمن التي تسببت فيها الحروب المتواصلة القائمة بين اليونانيين ـ الرومانيين من جهة والإيرانيين من جهة أخرى في سورية وبلاد ما بين النهرين، أدت إلى تحويل مسار حركة المرور البري المنتظمة إلى الشمال والجنوب. وقد أدى ذلك بدوره في ذلك العصر إلى إنتعاش إقتصاد كل من الحجاز ومصر والقسطنطينية وإلى إنحطاط المرافىء اللبنانية ـ السورية ومدن الفرات.

13 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 247.

إن إحياء العرب للأمبراطورية الشرقية القديمة والسلم الداخلي الذي فرضه خلفاء بني أمية أعادا طريق التجارة البرية إلى الهند وآسيا لتمر عبر البرزخ السوري ـ المابينهري فغدت البصرة والكوفة ومن ثم بغداد أسواقاً تجارية كبيرة تنطلق منها المنتجات الآسيوية تنقلها القوافل إلى الموانىء السورية واللبنانية ومنها تنتشر في المتوسط. فبدأت تجارة بحرية نشطة بين مختلف مناطق البحر المتوسط حيث أحيا اليهود واللبنانيون والسوريون التقليد القديم الذي إشتهر به الفينيقيون وراحوا يوغلون في إنتشارهم حتى بلغوا بلاد الغال حيث أسسوا لهم مراكز تجارية. وفي المقابل فإن الفتح العربي، بإعادته فتح طريق سورية ـ ما بين النهرين وهي الطريق البرية القديمة المؤدية إلى الهند، عطل خط القوافل العامل بين اليمن ومكة وغزة فهجر التجار مكة التي خلت من سكانها وتحولت إلى مركز ديني صغير يعيش على موارد الحج الكبير.

لكن الامبراطورية العربية ـ الشرقية ظلت مقطوعة من جهة عن آسيا الصغرى وبحر إيجه البيزنطيين، اللذين يشكلان الإمتداد الشمالي للتجارة الدولية عبر البرزخ الإيراني ومن جهة أخرى عن المتوسط الشرقي حيث كانت ما تزال تسيطر بحرية بيزنطية.

«وبالطبع فالأمويون سيعاودون تطبيق السياسة التي إنتهجها قبلهم بنحو إثني عشر قرناً الملك الفارسي داريوس. فهم، وبعدما سيطروا على حركة المرور التجارية المؤدية إلى آسيا الوسطى والهند، سيبذلون قصارى جهدهم للسيطرة على الإقتصاد الدولي بفرض سيادتهم على المتوسط. وكما فعلت فارس أيام الحروب المادية بضم اليونان إلى أراضيها فإن أمبراطورية دمشق ستتجه إلى فتح القسطنطينية. . . ولربما كان بالإمكان أن تسقط القسطنطينية لولا تفوقها الأكيد بالأسلحة، إذ كانت تمتلك مدفعية تستخدم النار اليونانية التي كانت قد، إكتشفت لتوها، مما سهل النصر للأسطول اليوناني (٦٧٧)»[14].

إن الخلافة العربية ـ السورية في دمشق، وهي خلف أمبراطورية أنطاكيا اليونانية ـ السورية والمتجهة نحو المتوسط والغرب، سوف تسعى إلى السيادة على البحر المتوسط وبحر إيجه اللذين ظلا تحت سيطرة البيزنطيين. ولتحقيق هذا الهدف فإن الحرب ضد بيزنطية التي لم تتخلَ عن حلمها بإستعادة مقاطعاتها القديمة (سورية ومصر) كان لا بد منها. ولهذا السبب إستمرت

14 Pirenne, *Les grands courants de l'Histoire universelle*, II, p. 7.

الهجمات البحرية والغزوات البرية على أراضي بيزنطية بإنتظام في عهد معاوية وخلفائه مع بعض الحملات الواسعة النطاق. وكان الهدف منها فتح الأناضول وبحر إيجه في وجه طريق البرزخ الإيراني الذي كانا يقطعان عليه طريق الوصول إلى بلدان أوروبا الشرقية.

«وهكذا حددت كل السياسة الخارجية للسلالة الأموية من جانب مؤسسها. وإستمرت إذن الحرب مع بيزنطية، لكن من غير نتيجة تذكر، مع إستثناء بحراً. ذلك أن الأباطرة البيزنطيين كانوا قد أعادوا تنظيم مقاطعاتهم الشرقية كالأناضول والكبادوك وأرمينيا بعناية خاصة وأصبحت تلك البلدان الحدودية اليونانية تقاوم الثغور على التخوم العسكرية للخلافة. وسوف تنشأ عما قريب بين المعسكرين منطقة عازلة لا سيطرة عليها لأحد حيث سيقوم الطرفان مداورة بأعمال السلب فيها، وقد حالت الدفاعات الطبيعية القائمة في تلك الأرض دون تحولها إلى صحراء حقيقية»[١٥].

15 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 319, 320.

# II. تحصين الأمبراطورية الأموية وتوسيع مداها |٦٦١ ـ ٧١٥|

## ١ ـ خلافة معاوية (٦٦١ ـ ٦٨٠)

### أ ـ سورية ومصر قاعدتان أساسيتان في الامبراطورية الأموية

إن معاوية بن أبي سفيان الذي كان يحكم سورية منذ العام ٦٣٧، وبعدما أصبح خليفة العام ٦٦١، جعل منها منطقة نفوذه واستمر على إدارتها مباشرة، وأصبح السوريون والقبائل العربية في سورية، وهم من الناحية السياسية أكثر تطوراً من بدو الجزيرة، دعامة لعرشه، ومصدراً لقوته

وقد حصل معاوية، فضلاً عن سورية، على موارد مصر. فإثر وفاة «عمرو بن العاص» الذي كان يمارس سلطة شبه مستقلة في مصر «أصبحت مقاطعة النيل الخصبة تابعة لسورية ومصدر ثروتها. علماً بأن مصر وسورية هما المنطقتان الرئيسيتان في الأمبراطورية الأموية اللتان تتطلعان بشكل ملحوظ نحو البحر المتوسط»[١٦].

### ب ـ قوة معاوية البحرية

وتحت تأثير الأوساط الاقتصادية السورية المتجهة منذ أقدم الأزمنة نحو الغرب تخلى معاوية عن متابعة سياسة التوسع القاري نحو الشرق حيث كانت مقاطعات دجلة والفرات الغنية تشكل قاعدة إنطلاق هذا التوسع. ووجه معاوية جل إنتباهه نحو البحر. وقد نشأت مع معاوية قوة العرب البحرية الجديدة في المتوسط الشرقي والتي أشار اليها المؤرخون الإسلام وذلك بدفع

16 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 180, 181.

من الموانىء السورية ـ المصرية ناهيك بمؤازرة البحارة اللبنانيين ـ السوريين وارثي تقاليد الفينيقيين القدامى البحرية. وأما السيطرة على البحر الأحمر والخليج العربي فيعود الفضل فيها الى العرب الموجودين على ساحل بحر عمان والبحارة الفرس.

### ج ـ معاوية وبيزنطية

لكن العدو الوحيد الخطر بالنسبة الى العرب بقي ماثلاً في الأمبراطورية البيزنطية. فمن وراء جبال طوروس كانت هذه الأمبراطورية قادرة، كما ستفعل في كثير من الأحيان، على شن هجماتها نحو الجنوب وأن تعيد، إحتلال سورية ومصر اللتين كانتا تابعتين لها، جزئياً أو كلياً. فمعاوية، وعندما كان حاكماً على سورية، لم ينجح في احتلال مدن الساحل الفينيقية التي كان يحتلها البيزنطيون رغم خوضه معارك عديدة. غير أنه قام بعدها بحملات برية عدة في آسيا الصغرى ضد أراضي البيزنطيين.

ومن أجل تأمين سيطرته على السواحل السورية حصل معاوية الحاكم على إذن من قريبه الخليفة عثمان، بعدما اخفق في انتزاعه من عمر، ليجابه عدوه في البحر حيث كان القتال البحري حكراً عليه. وفي العام ٦٤٩ هاجم معاوية قبرص، وفي العام ٦٥٥ هزم الأمبراطور كونستانس الثاني على ساحل ليقيا جنوب الأناضول ولكنه لم يمضِ أبعد من ذلك. وبعد وقت قصير أجبره صراعه مع علي على شراء السلم من بيزنطية.

وبعد سنة من إرتقائه سدة الخلافة، أرسل معاوية الى الشمال جيشاً قوياً دخل خلقيدونيا وتقدم حتى القسطنطينية. لكن الجيش العربي اضطر الى رفع الحصار عن العاصمة البيزنطية والعودة الى سورية (٦٦٧ ـ ٦٦٨).

### د ـ «النار اليونانية» تنقذ القسطنطينية (٦٧٤ ـ ٦٧٧)

وفي العام ٦٧٤ تقدم أسطول عربي قوي فسد مضيق البوسفور وراح يناوش القسطنطينية طوال سنوات عديدة. ولم تنجُ العاصمة اليونانية الا بفضل «النار اليونانية» وهي مزيج أساسه النفط وهو قادر على إحراق المراكب حتى في عرض البحر. وهذا الاختراع الذي إبتكره مهندس يوناني ـ سوري وضع في تصرف الأمبراطور كونستانس الثاني. وبعد محاولة أخيرة إنتهت الى كارثة إنسحب الأسطول العربي وتم عقد معاهدة صلح مع بيزنطية (٦٧٧) تعهدت دمشق ان تدفع بموجبها جزية الى الملك البيزنطي.

هـ ـ إنتزاع أفريقيا الشمالية من البيزنطيين (٦٧٠ ـ ٦٧٥)

إن إخفاق معاوية في الشمال تم التعويض عنه بإنتشار واسع حققه في الغرب. فمنذ العام ٦٧٠ تم كسر طوق السيادة البيزنطية على شمال افريقيا. وفي العام ٦٧٥ أنشئت مستوطنة عسكرية في القيروان في تونس ستجعل من تلك المدينة عاصمة لأفريقيا العربية.

وفي الشرق حافظت الجيوش العربية على موقعها في الهضبة الايرانية. لكن العراق المتضامن سراً مع أنصار علي ظل موضع شك وكانت البصرة والكوفة تأويان المتعاطفين مع علي.

**و ـ إنشاء الخلافة الوراثية**

إن الانقسامات والقلاقل التي كانت تنشأ ما أن يموت الخليفة وتفتح مشكلة خلافته نبهت معاوية الى الخطر الكامن وراء إنعدام وجود قانون ينظم عملية انتقال السلطة. وأثبت مبدأ الاختيار المطبق في القبيلة والذي اعتمد بعد وفاة الرسولﷺ وخلفائه في المدينة على أنه سبب للفوضى وللنزاعات الدامية.

ولذا قام معاوية، مؤسس السلالة الأموية، بإعتماد مبدأ جديد هو مبدأ الخلافة الوراثية، «وهو تقليد جديد مناقض للتقاليد العربية» وقد تصرف في هذا الشأن بتحفظ شديد. وعلى مثال الأباطرة الرومانيين أيام الأمبراطورية القديمة عيّن معاوية على حياته إبنه يزيداً وريثاً له. وهذه البدعة التي وضعت حداً للخلافة الاختيارية وأرست الملكية الوراثية في أسرة معاوية لم تمر من دون صراعات وإراقة دماء.

«وهنا أيضاً ينشأ موقف جديد بفعل إحتكاك العرب بالأجانب. وكما كان يفعل الأمبراطور الروماني فيعين خلفه من غير حاجة الى أخذ عامل الوراثة بعين الاعتبار، فإن معاوية أرسى عادة تعيين ولي العهد سلفاً لتولي الخلافة ولكن وللحفاظ على عادة المبايعة البدوية القديمة فإن الطائفة الإسلامية، وعن طريق قسم رسمي، اعترفت بالخليفة الجديد لدى تعيينه وإرتقائه العرش... وقد إضطر معاوية الى استخدام كل نفوذه وبذل كل براعته حتى نجح في جمع ممثلي القبائل العربية في الامبراطورية الذين جاؤوا في وفود تقليدية وأقسموا على الخضوع التام للخليفة العتيد في مسجد دمشق الكبير.

وهكذا درج تقليد جديد يعهد الى هيئة او مجلس يمثل نوعاً ما الطائفة الاسلامية مهمة تعيين او بالحري الاعتراف بولي عهد الخليفة والمناداة به على هذا الاساس. وإن تعيين ولي عهد الخليفة مسبقاً والذي إقترن غالباً بالنجاح أيام الأمويين سيثير، كما سنرى لاحقاً، الصراعات والاضطرابات الخطيرة في عهد العباسيين ولن يفلح في تأمين انتقال سلمي للسلطة في دولة تسودها الفوضى باستمرار»[17].

### ز ـ أعمال معاوية

كان معاوية شخصية كاملة الصفات ورجلاً محبوباً ويمكن اعتباره على أنه النموذج الأكثر تمثيلاً للعاهل العربي. كان يتمتع بمقدرة كبيرة على التأثير في الناس وكان يؤثر شراء أخصامه بالمال عوض إزالتهم. وهو بنقله عاصمة الخلافة من المدينة الى دمشق إنما أحل سيادة عرب سورية محل سيادة بدو الجزيرة العربية الأقل تطوراً وأعطى لسورية والسوريين التفوق السياسي على العراق ومصر. وهو لو لم يؤسس دولة قومية سورية لكان على الغالب أعجز من ان يطيح بناء الخلافة التيوقراطي، «لأن هذا البناء كان يرتكز على تفوق حصري بعرق ودين». ذلك انه وفي عصر معاوية كانت شعوب سورية في معظمها تقريباً ما تزال آرامية ومسيحية.

وكان معاوية واقعياً ومتسامحاً يعرف تماماً إنعدام خبرة العرب في الشأن الإداري، لذا فإنه احتفظ بالموظفين الذين لم يعتنقوا الإسلام في مناصبهم. فالمسيحي إبن سرجون، الذي كان أيام الأمبراطور البيزنطي هيراقليوس يدير مالية دمشق، عيّنه معاوية رئيساً لديوان الضرائب ورئيس محاسبة للجيش العربي». وإذا تذكرنا ان الجيش والمالية كانا يشكلان «كل الحكومة العربية» في ذلك العصر لعلمنا ان منصب إبن سرجون والحالة هذه كان يجعل منه أشبه «بمستشار الخلافة» وفي الوقت نفسه فهو وزير الحرب والمالية. وكان إبن سرجون مستشاراً مسموع الكلمة من جانب معاوية وإبنه وخلفه يزيد وقد نقل منصبه هذا من بعده الى ورثته.

وبالاضافة الى آل سرجون وسواهم من كبار الموظفين والأطباء والعلماء والشعراء المسيحيين لا بد لنا من التذكير بنفوذ قبيلة «بني كلب» العربية

17 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 184, 185.

السورية الشديدة التأثير والتي كان شيخها أو أميرها المسيحي بهدل هو والد ميسون زوجة معاوية وأم الخليفة يزيد.

إن معاوية هو منشىء الجيش والبحرية العربيين السوريين وقد جعل منهما أداة قوية للحرب والفتوحات. «فطوال قرن من الزمن ظلت تلك الجيوش الأمبراطورية تمد حدود المملكة وتحافظ على وحدة الخلافة وتفوق السوريين. وقد تحول معاوية بعد وفاته، وبالنسبة الى هؤلاء، الى أشبه ببطل قوي هو السفياني الذي قيض له ان يعيد الئ سورية عهدها الذهبي الذي دشنته السلالة التي أسسها إبن أبي سفيان»[18].

## ٢ ـ ثورات وحروب أهلية (٦٨٠ ـ ٧٠٥)

ومنذ وفاة معاوية (٦٨٠) عاد العداء القديم الذي طالما جابه في الماضي العراق وإيران اللذين كانا يشكلان المملكة الساسانية السابقة من جهة وسورية ومصر المقاطعتين البيزنطيتين القديمتين من جهة أخرى، وليظهر بعنف كبير. وهذا التنافس بين الجزء القاري والشرقي والجزء المتوسطي والغربي في الشرق القديم، والذي كان تحت الرماد منذ موت علي (٦٦١)، عاد وانفجر فجأة بضراوة بشكل تمرد إثر وفاة معاوية. فسورية ومصر مشتا في ركب خلف معاوية في حين مالت العراق وايران الى انصار علي. ومن جهة اخرى أيضاً فإن الخوارج المتمردين باستمرار راحوا يطالبون بالمساواة في دفع الضرائب المالية بين غير العرب المعتنقين للإسلام والعرب المسلمين. وأما مكة والمدينة اللتان حرمتا من مكانتهما السياسية فقد رضختا صاغرتين على مضض لمصيرهما.

### أ ـ ثورة العراق. مأساة كربلاء (٦٨٠).

ولدى إرتقاء يزيد الأول (٦٨٠ ـ ٦٨٣) إبن معاوية وخلفه على العرش فإن العراق وجزيرة العرب ثارا (٦٨٠). وقام أنصار علي في العراق بإعلان الحسين خليفة وهو ثاني أبناء علي وزوجته فاطمة وحفيد الرسولﷺ. فسحق حاكم العراق الأموي ثورة هؤلاء المتمردين بسهولة وقد قتل الحسين في كربلاء وأرسل رأسه الى الخليفة يزيد في دمشق (في ١٠ محرم ٦١هـ ـ ١٠ تشرين الأول ٦٨٠م).

18 Lammens, *Précis historique, La Syrie*, I, p. 72.

إن مأساة كربلاء ومقتل الحسين الذي أعلن شهيداً من قبل أنصار علي أديا الى نشر الأفكار الشيعية الدينية وجعل من الشيعة لاحقاً أبطال النزعات المعادية للعرب. وبات الثأر لجريمة كربلاء صرخة الإنضواء الى شيعة علي.

### ب ـ تمرد المدينة

وأما في جزيرة العرب فإن المدينة التي كانت تأخذ على الأمويين تجريدهم إياها من مرتبتها ومركزها كعاصمة سياسية للخلافة فقد أعلنت خلعها ليزيد. فأرسل يزيد جيشاً عربياً ـ سورياً الى المدينة فهزم هذا الجيش وسحق أمام المدينة زهرة نبالة بني قريش (٦٨٣)، فخضع أهل المدينة وجددوا مبايعتهم واخلاصهم ليزيد.

### ج ـ تمرد مكة. إبن الزبير خليفة على جزيرة العرب والعراق (٦٨٣)

وبعد المدينة ثارت مكة بنداء من عبدالله بن الزبير إبن أخ عائشة أرملة النبي. فحاصر جيش يزيد المدينة ولكن موت هذا الخليفة الأموي العام (٦٨٣) إضطر جيشه للعودة الى سورية ورفع الحصار عن المدينة المقدسة. وأعلن إبن الزبير نفسه، يؤيده كل الحجاز، خليفة على المسلمين.

**معاوية الثاني (٦٨٣ ـ ٦٨٤)** ـ إن هذا الخليفة الذي لم يحكم سوى ستة اشهر كان قليل الذكاء ومريضاً. وعند إرتقائه العرش كان الوضع السياسي في الامبراطورية في حالة يرثى لها. ففي مكة تم الاعتراف بابن الزبير كخليفة من جانب جزيرة العرب والعراق وجزء من سورية.

### د ـ تمرد العرب القيسيين (٦٨٤)

ومن جهة اخرى فإن الصراعات القبلية بين عرب الشمال وعرب الجنوب أضيفت الى المنازعات الاقليمية والحركات الانفصالية. فالعرب المقيمون في سورية قبل الاسلام وأولئك الذين جاؤوا مع الفتح ومنهم بنو كلب هم في معظمهم من أصل يمني ولذا عرفوا أيضاً باسم اليمنيين. وأما البدو الذين تقاطروا بعد الفتح فقد جاؤوا من وسط الجزيرة العربية وهم ينتمون الى مجموعة بني قيس وقد عرفوا أيضاً بإسم القيسيين. وقد إنفجرت العداوة بين المجموعتين ما أن توفي يزيد. فبنو قيس الذين أوغر صدورهم ما كان يلاقيه اليمنيون من تفضيل، باعتبار ميسون، أم الخليفة يزيد هي واحدة منهم، رفضوا الاعتراف بالخليفة الجديد «إبن مناوئيهم الكلبيين وحفيدهم».

وما أن توفي معاوية الثاني (٦٨٤) إثر إصابته بالطاعون حتى ثار القيسيون وطردوا حاكم قنسرين الذي كان من بني كلب وإنضموا الى الخليفة المناوىء للأمويين في مكة. وفي دمشق نفسها قام زعيم قيسي هو الدهاك الطامح بدوره الى تولي الخلافة.

هـ ـ هزيمة القيسيين (٦٨٥)

مروان (٦٨٤ ـ ٦٨٥) هو خلف معاوية الثاني، سحق القيسيين في مرج راهيت شمال شرق دمشق. وقد أثار هذا النصر الذي أحرزه مروان بمساعدة بني كلب، والذي قتل فيه أبرز قادة القيسيين، الحقد بين المجموعتين المتنافستين. وهذه العداوة التي تحولت الى كراهية عمياء بين القيسيين والكلبيين ستكون أحد أهم أسباب زوال سلالة الأمويين.

فمروان الذي انتصر في مرج راهيت وأخضع سورية كلها لسلطته نجح فيما بعد في الاستيلاء على مصر وصد هجوماً شنه عليه انصار إبن الزبير في فلسطين. لكن هذا الخليفة الألمعي توفي العام ٦٨٥ على الأرجح متأثراً بوباء الطاعون.

و ـ الخليفة عبد الملك بن مروان

كان الخليفة عبد الملك (٦٨٥ ـ ٧٠٥) الذي حكم عشرين عاماً مثل أبيه مروان خليفة عظيماً. وخلافاً لمن سبقه الى العرش ممن ظلوا يحكمون كرؤساء قبائل قدماء فإن عبد الملك كان أول من عمل وتصرف كعاهل مطلق. وهو أسوة بالملك البيزنطي كان اوتوقراطياً (مطلق السلطة) وتيوقراطياً (إلهياً) معاً. وكان يمارس واجباته الدينية بنزاهة عالية وقد منح علماء الدين المسلمين سلطة أكبر. ففي أيام حكمه وحكم ابنه الوليد نشعر بولادة «تصميم على جبه الحضارات البيزنطية والمسيحية والساسانية والمزدية بمفهوم اسلامي وعربي»[١٩].

وعند إرتقائه العرش لم يكن عبد الملك سوى ملك على سورية ومصر. ولم تكن جزيرة العرب خاضعة له بل كانت خاضعة لخليفة مكة فيما العراق، وبعدما ظل لفترة متشيعاً لأنصار علي، بقي خمس سنوات تابعاً للحجاز.

19 Wiet, *op. cit.*, p. 48.

وهكذا سدت سبل الحج الى مكة أمام المسلمين السوريين والمصريين. كما أن إخفاقاً عسكرياً في العراق (٦٨٦) أثار في دمشق ثورة الأرقاء المتضامنين مع الدهماء».

## ز ـ المردة، قبائل مسيحية من الأمانوس تتوغل حتى لبنان (٦٨٧ ـ ٦٨٨)

إستغل المرديون أو المردة[٢٠]، وهم قبائل مسيحية من جبال أمانوس وطوروس يشجعهم البيزنطيون، الفوضى المستحكمة بالأمبراطورية فتوغلوا داخل سورية (٦٨٧). وكان مردة أمانوس، الذين يعرفون أيضاً بالجراجمة ويتمتعون باستقلال كبير داخل جبالهم، يعملون كمساعدين في الجيوش البيزنطية. وكان قد سبق لهم ان إجتاحوا الأراضي السورية خلال الحرب الأهلية بين معاوية الأول وعلي ولم تستدعهم بيزنطية مجدداً إلا بناءً على طلب معاوية الأول الذي دفع لليونان ثمن إنسحابهم.

«وهكذا فإن هؤلاء المردة، تساندهم بضع فرق من الخيالة اليونانية وبإمرة ضباط امبراطوريين، دخلوا الى قلب لبنان واحتلوا جميع النقاط الاستراتيجية فيه وصولاً الى فلسطين. وهرعت الى العيش معهم مجموعات كبيرة من السكان الأصليين الساخطين على الحكم العربي وآلاف الأرقاء وأسرى الحرب الذين سبق وسيقوا الى سورية إثر عمليات الغزو»[٢١].

ومن أجل وقف هذه الحركة التي أثارتها بيزنطية عمد عبد الملك الى التعهد للأمبراطور البيزنطي بتقديم نصف خراج جزيرة قبرص وأرمينيا وايبيريا. وبعدما تخلى الامبراطور البيزنطي عن المردة نتيجة هذه الصفقة تشتتوا (٦٨٨). وإنحصر إثنا عشر ألف مقاتل منهم في بلاد اليونان حيث المرديون اليونان من سلالاتهم. كما أن بعض أفراد مجموعاتهم ظلت في لبنان واندمجت بالمسيحيين الجبليين فيه.

(٢٠) ان تسمية «مردة» التي أطلقها الكتاب العرب على هذه القبائل قد تعني المتمردين.

21 Lammens, *op. cit.*, *p.* 82.

### ح ـ إخضاع العراق وجزيرة العرب (٦٩١)

وبعدما تخلص عبد الملك من خطر المردة زحف بنفسه العام ٦٩١ الى العراق فأخضعه. وأوكل الى رجل بارز وهو الحجاج بن يوسف مهمة اعادة فتح جزيرة العرب. فقام هذا الأخير باحتلال مكة إثر حصار دام سبعة أشهر وقتل إبن الزبير المناهض للخليفة بعدما تخلى عنه جميع مؤيديه لدى خروجه من منزله خلال إحدى الغارات (٦٩٢). ومكافأة له على هذا النصر عُين الحجاج حاكماً على جزيرة العرب. ثم وفي إلعام ٦٩٤ عُين في أهم منصب في الامبراطورية وهو منصب حاكم العراق والمقاطعات الآسيوية.

### ط ـ تقسيم الأمبراطورية الإداري والجغرافي.

إن أمبراطورية عبد الملك الأموية وأسوة بالامبراطورية الرومانية في القرن الرابع، والتي إستعادت حديثاً وحدتها السياسية والأرضية بفضل الحجاج، كانت هي بدورها مبتلية بداء وراثي عضال: العداوة المزمنة بين جزئها الشرقي (العراق وإيران) وجزئها الغربي (سورية ومصر). وكما فعل الامبراطور الروماني ديوكليسيان في الماضي فإن عبد الملك وتحت ستار وحدة سياسية ظاهرية إقتسم مع الحجاج ادارة أراضي الامبراطورية. ففي حين كان الحجاج سيداً شبه مطلق على الجزء الشرقي من الامبراطورية فإن الخليفة عبد الملك احتفظ لنفسه بالمقاطعات الغربية معيناً فيها حكاماً من أسرته. فكان عبد العزيز أخ الملك حاكماً على مصر وشمال أفريقيا.

### ي ـ عبد الملك وبيزنطية

إن أمبراطورية عبد الملك وبفضل مركزها القائم في دمشق فهي متجهة بوضوح ناحية المتوسط. ولكن السيادة البحرية على المتوسط الشرقي كانت ما تزال في عهدة بيزنطية. ولذا فإن الحرب ضد بيزنطية، والتي أوقفها العرب منذ نحو خمسة عشر عاماً بسبب حربهم الأهلية، ستستأنف الآن. إن الهدنة التي عقدها معاوية الأول مع الامبراطور خلال حربه مع علي خرقها يوستينيانوس الثاني (٦٨٥ ـ ٧١١) بحجة اصدار العملة العربية الجديدة. ولكن أعمال الغزو التي شنها العرب في بلاد الروم (الأناضول) وما قابلها من هجمات بيزنطية على الأراضي السورية لم تُفضِ الى مكاسب حاسمة لأي من الطرفين.

ك ـ فرض اللغة العربية كلغة رسمية للإدارة (حوالي ٧٠٠)

ففي أيام حكم الخليفة عبد الملك، حوالي العام ٧٠٠، كما أسلفنا، تم إتخاذ تدبيرين مهمين هما: ١ ـ منع استخدام اللغات الأجنبية في الادارة، ٢ ـ منع استخدام العملات البيزنطية التي كانت ما تزال متداولة.

ومما يذكر انه وحتى ذلك الوقت فإن الرعايا من غير المسلمين والذين كانت في يدهم الأجهزة الادارية ظلوا يستخدمون اللغة اليونانية في سورية ومصر واللغة الفارسية في العراق في قيود السجلات الرسمية. إن إصلاح عبد الملك الذي سعى الى إدخال اللغة العربية في عمليات المحاسبة الضريبية لم ينجز الا حوالي نهاية العهد الأموي. وإنه خلال نصف القرن هذا (٧٠٠ ـ ٧٤٠) صار معتنقو الإسلام يشكلون الأغلبية في صفوف الموظفين.

«ومما يدعو الى الاعجاب حقاً هو الاحتراز الذي تمت به هذه الخطوة. فقد وضع هذا المنهج قيد الاختبار طيلة سنة في مقاطعة الأردن وحدها ثم طبق على سورية بأكملها ومن ثم فارس. وفي مصر لم يصدر المرسوم الداعي الى تلك الخطوة الا العام ٧٠٦ في مطلع حكم الوليد. ان تفحص كتابات البردي المصرية يظهر لنا حذر الادارة العربية التي لم تتسرع بفعل شيء، بعدما جربت استخدام اللغتين معاً منذ بدء الفتح تقريباً. فهاكم بعض التواريخ الموقتة التي تظهر تداخل اللغات المتعددة. ففي البدء كانت معظم أوراق البردي تحرر باليونانية وآخر واحدة منها حررت العام ٧٨٠. وأول ورقة بردي مكتوبة باللغتين اليونانية والعربية يعود تاريخها الى العام ٦٤٣ وآخر ورقة منها تعود الى العام ٧١٩. لكن البروتوكولات (نصوص المعاهدات ونظام التشريفات) ظلت تكتب باللغتين حتى العام التالي. فأول ورقة بردي دونت باللغة العربية فقط يعود تاريخها الى العام ٧٠٩ وبدءاً من هذا التاريخ راح عدد أوراق البردي المكتوبة باللغة العربية يتزايد سنة بعد سنة. وكانت الحكومة تقبل العديد من الرسائل (الإبلاغات) باللغة القبطية ولكن لا يبدو انها استخدمت تلك اللغة بشكل معتاد»[٢٢].

ل ـ سك عملة عربية

إن الخليفة عبد الملك هو أيضاً من قام بالإصلاح النقدي. إذ لم يكن العرب وحتى عهده قد أصدروا إلا عملات فضية تقلد العملات البيزنطية

22 *Wiet, op. cit.*, p. 48, 49.

والفارسية وكانوا يستوردون من بيزنطية الدنانير أو الريالات الذهبية. وكانت بيزنطية تعتبر إصدار النقود الذهبية امتيازاً أو حكراً عليها، وكانت تفرض الاعتراف لها بهذا الحق في الاتفاقيات الدبلوماسية. ولذا فإن خلافة دمشق ولإثبات استقلالها التام عمدت الى اصدار دنانير ذهبية بنص عربي سكت عليها شهادة التوحيد الاسلامية. وقد جرى سك تلك الدنانير الذهبية في دمشق والكوفة. وإحتجاجاً على هذه الخطوة رفض الامبراطور البيزنطي تسلم الجزية السنوية التي وافق عبد الملك على دفعها العام ٦٩٠ كثمن لانسحاب المردة، بالدنانير العربية[٢٣].

م ـ تجميل المساجد

وأخيراً فإن الخليفة عبد الملك أراد إعطاء المساجد زخرفة بمثل عظمة زخرفة الكنائس وحجته في ذلك: «أن الله وأسوة بالمسيح سوف تكون له مساجد بالغة الزخرفة عوضاً عن تلك المعابد الأولية التي كانت تجاور الفقر ببساطتها» (وايت). وقد إستعان بفنانين بيزنطيين لتزيين مساجد المدينة ودمشق وأورشليم والقاهرة بالفسيفساء.

ن ـ ثورة العراق وإخضاعه (٧٠٠ ـ ٧٠١).

وفي حوالي العام ٧٠٠ قام الخوارج بثورة كبيرة في العراق تبعها تمرد عام في جميع أنحاء تلك البلاد. فأرسل الخليفة عبد الملك جيشاً عربياً سورياً من دمشق بناء على طلب الحجاج فأعاد الأمن إلى العراق إثر معارك دامية (٧٠١) وأعاد إحتلال العراق مقاطعة. وكانت تلك الأحداث نذيراً واضحاً بالإنقسام الوشيك بين شطزي الأمبراطورية الكبيرين، سورية وبلاد ما بين النهرين واللذين سيكون من غير الممكن جمعهما في كل متجانس ونظامي.

(٢٣) ان كلمة «دينار» العربية مشتقة من الكلمة اللاتينية ديناريوس وهو اسم عملة رومانية قديمة وعملة بيزنطية في ذلك العصر.

## ٣ ـ التوسعات العسكرية نحو الغرب ونحو الشرق (٧٠٥ ـ ٧١٥).

### فتح إسبانيا وعبر الأوكسيان (ما وراء النهر).

#### أ ـ خلافة الوليد الأول

وفي أيام حكم الوليد الأول (٧٠٥ ـ ٧١٥) إبن عبد الملك وخلفه أفادت السياسة التوسعية العربية من الهدوء في الداخل وشنت على ثلاث جبهات خارجية في الشمال والشرق والغرب حرب توسع وفتح. وكان الخليفة الوليد يتسم بطبع متسلط وكان أقل تسامحاً من أسلافه بالنسبة إلى دافعي الجزية من الذميين،فعزل المسيحيين من المناصب الإدارية الكبرى كما إنتزع الإدارة العامة لمالية الخلافة من سلالة إبن سرجون. وكان الوليد متديناً ورعاً وبانياً كبيراً ومنجز مشاريع خيرية ذات منفعة عامة. وكان يتمتع في سورية بشعبية كبيرة.

#### ب ـ مسجد الأمويين في دمشق

إن دمشق التي كانت نسبة السكان العرب فيها ما تزال ضئيلة لم يكن فيها سوى مسجد واحد متواضع بُني لهم. وإن الوليد المستبد الذي عزم على تزويد العاصمة بمسجد مهيب عمد إلى مصادرة كاتدرائية القديس يوحنا من المسيحيين وتحويلها إلى مسجد أموي. بيد أن الخليفة أضاف إليها فناء واسعاً وبنى فيها قبة النسر الشهيرة وحشد جيشاً من الفنانين للقيام بأعمال الزخرفة الداخلية.

#### ج ـ فتح إسبانيا (٧١١)

وبعدما إنتزع العرب تونس من أيدي البيزنطيين (٦٧٠) قاموا بإخضاع رؤساء قبائل البربر في المغرب وبسطوا سيادتهم على كامل ساحل أفريقيا الشمالية.

وفي العام ٧١١ قام جيش قوي مؤلف من عرب وبربر شمال أفريقيا بإجتياز مضيق جبل طارق ودمروا في إسبانيا أمبراطورية الويزيقوط التي أصبحت ضعيفة وقتلوا رودريك آخر قادة القوط. وتابع الجيش الظافر تقدمه ودخل مدينة طليطلة وأخضع كل شمال إسبانيا.

وأما الجبل الذي حشد عليه القائد البربري طارق بن زياد جيوشه إثر إنزاله البحري في إسبانيا فما يزال يحمل إسمه: جبل طارق حتى يومنا هذا.

**د ـ هجوم عربي على آسيا الصغرى (٧١١)**

وفي ذلك الوقت نفسه توغلت القوات العربية إلى داخل بلاد الروم (الأناضول) ودكت القلاع التي تقطع الطريق نحو القسطنطينية. ثم إجتاح مسلمة بن الوليد منطقة جبال الأمانوس وإحتل جرجومة عاصمة المردة ووضع حداً للخطر الذي يمثله هؤلاء الجبليُون. فنزح قسم من المردة إلى الأراضي البيزنطية في حين تطوع آخرون في خدمة العرب. «فأسهموا مع يزيد الثاني وهشام بن عبد الملك في قمع إضطرابات العراق وكانوا موضع تقدير وإحترام وأغدقت عليهم الإمتيازات برغم أنهم مسيحيون»[٢٤].

**هـ ـ إحتلال بلاد سجديان (عبر الأوكسيان) أو ما وراء النهر (٧١٢).**

وفي الشرق إنطلقت جيوش الفتح العربي من العراق التي كان يحكمها الحجاج فضلاً عن حكمه إيران كلها أيضاً،وإجتازت محافظة خراسان وهي المقاطعة الحدودية للأمبراطورية العربية وقد كانت منذ قرون بعيدة مسرحاً للقتال بين العرقين التركي والإيراني. وفي العام ٧١٢ أصبحت سمرقند، وهي عاصمة بلاد سجديان (معناها في العربية بلاد ما وراء النهر) فضلاً عن مدينة بخارى، مركزاً لحاميات عسكرية. وقد أصبحت المدينتان التركيتان ـ الإيرانيتان المذكورتان أهم الحصون العربية في ذلك الجزء من آسيا. وإن فتح بلاد السند (باكستان اليوم)، الذي تم من فارس الجنوبية وبلوشستان، سيفتح أمام العرب ميداناً جديداً لنشاطهم.

إن الحجاج بن يوسف الثقفي والوليد الأول بن عبد الملك، وقد كانا من كبار رجال الإدارة والحرب، ماتا الواحد تلو الآخر. الأول العام ٧١٤ والثاني العام ٧١٥.

24 Lammens, *op. cit.*, I, p. 83.

# III. إنحطاط الأمبراطورية الأموية وزوالها
## ٧١٥ ـ ٧٥٠

### ١ ـ إنحطاط الأمويين

#### أ ـ إسترخاء العرب تحت تأثير الحياة الحضرية

وفي حوالي العام ٧٠٠ بدأت الجيوش العربية تفقد زخمها القتالي. فمعظم الفاتحين أو سلالاتهم الذين إستقروا وتزوجوا في المقاطعات المحتلة لم يعودوا يشعرون بالرغبة في الحرب. وكانوا يكتفون بتأدية الخدمة العسكرية الموقتة في بلد إقامتهم نفسه. ذلك أن حياة الرخاء الحضرية أدت في النهاية إلى إسترخاء أبناء الصحراء هؤلاء.

«بيد أنه وفي القرن الثامن كان على الخليفة أن يقاوم في كل جانب. ففي الداخل كانت هناك ثورات الخوارج وأنصار علي والأقباط والأكراد والإيرانيين ثم وفي وقت قريب العباسيين. وأما في الخارج فقد كانت هناك الحرب مع بيزنطية كما بدأت أيضاً إلى الشرق أعمال الدفاع ضد الأتراك. . . وكان جيش أواخر الخلفاء الأمويين ما يزال جيشاً قومياً، لكنه لم يعد أبداً كما كان في السابق جيش مقاتلين من أجل الدين ولا حتى المجد»[٢٥].

ثم إن الأمبراطورية كانت واسعة جداً ومتنافرة جداً بحيث تعجز قوات فقدت تفوقها العددي وقدرتها القتالية عن الحفاظ على وحدتها. «وكلما إمتدت حدود تلك الأمبراطورية كلما بَانَ التفاوت بين مجموع الشعوب المحتلة وعدد المحتلين القليل. وفضلاً عن ذلك فإن الأمويين، وبعدما لاحظوا أن إزدياد عدد المقبلين على إعتناق الإسلام من شأنه خفض العائدات من الضرائب،

25 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 212, 213, 214.

فقد وضعوا العراقيل أمام تلك الإعتناقات وراح موظفوهم يعاملون الشعوب الخاضعة كشعوب أقل شأناً ويضغطون عليها ويسيئون معاملتها برغم أن تلك الشعوب هي وريثة حضارات قديمة وكانت تذكر بذلك بإعتزاز دائماً»[٢٦].

وهذا الإستياء الذي إستغلته الدعاية العباسية النشطة والبارعة سرعان ما أدى إلى سقوط خلافة الأمويين.

**ب ـ الخلفاء ينقلون إقامتهم من دمشق**

ومن العام ٧١٥ وحتى العام ٧٢٤ تعاقب ثلاثة خلفاء على العرش هم: سليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد الثاني. وفي أيام حكمهم إزداد الإنقسام بين سورية والعراق وأصبح أشد خطراً. وراحت الثورات تعصف بالمقاطعات الإيرانية: إنها بداية الحركة التي ستجعل الجزء الشرقي من الأمبراطورية يثور ضد سورية الأموية ولصالح العباسيين. ومن جهة أخرى كانت دمشق تجد مشقة كبيرة في الحفاظ على مركزها كعاصمة للأمبراطورية. فالسوريون الذين إعتنقوا الإسلام والذين باتوا يشكلون الآن حزباً سائداً سواء بعددهم أو بثقافتهم، ما زالوا يعاملون على أساس أنهم أدنى مرتبة. وصارت طلباتهم المطردة تحرج الخليفة فراح هذا يسعى لنقل مقره من دمشق إلى مكان أهدأ.

ومنذ حكم الخليفة الوليد الأول (٧٠٥ ـ ٧١٥) وبخاصة منذ حكم الوليد الثاني (٧٤٣ ـ ٧٤٤) غدت دمشق عاصمة بالإسم فقط ولكنها لم تعد مقراً للخليفة. ولم يعد الخلفاء يظهرون فيها إلا خلال الإحتفالات الرسمية. فالخليفة سليمان أقام في فلسطين حيث بنى مدينة الرملة. وعمر بن عبد العزيز جعل مقره في قناصرة جنوب شرق حلب. وأما يزيد الثاني فقد إنعزل في البلقاء شرق نهر الأردن. وقد حذت حكومات المقاطعات حذو هؤلاء الخلفاء أيضاً.

**ج ـ إخفاق حملة عسكرية ضد بيزنطية (٧١٨)**

ظلت الفكرة المسيطرة على عهد الخليفة سليمان (٧١٥ ـ ٧١٧) وكان أميراً منغمساً في الملذات وورعاً، هي فتح القسطنطينية. فسيّر قوات عسكرية برية وبحرية ضخمة نحو الشمال مما سمح للعرب ببدء حصار العاصمة البيزنطية (٧١٦). بيد أن العاصفة والنار اليونانية والأوبئة جعلت المهاجمين ينكفئون. «ومرة جديدة نجحت اليونان ـ كما في الماضي أيام الحروب المادية ـ

26 Massé, *op. cit.*, p. 50.

بلجم آسيا ومنعها من تحقيق الأمبراطورية العالمية». (بيرين).

### د ـ إضطرابات في سورية وثورة في العراق (٧٢٠)

كان الخليفة عمر بن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٧٢٠) أميراً صارماً ومعارضاً لحروب الفتح وحاول عبثاً تحسين وضع الموالي أو الموالين أو المسلمين غير العرب الذين كانوا يلقون معاملة أدنى من جانب أبناء دينهم العرب. ومن غير أن يضطهد المسيحيين إضطهاداً تاماً سعى إلى إقصائهم عن الإدارة العليا في الدولة. وأما الخليفة يزيد الثاني (٧٢٠ ـ ٧٢٤) والذي إنحاز إلى القيسيين فقد أثار عداوة اليمنيين الذين يشكلون غالبية عرب سورية. وقامت ثورة في العراق قمعها يزيد بعنف (٧٢٠) وقد وقع يزيد تحت تأثير قينتين موسيقيتين من المدينة وتوفي العام ٧٢٤.

### هـ ـ هزائم وثورات في الغرب والشرق

هشام (٧٢٤ ـ ٧٤٢) وهو أخ يزيد وخلفه، جعل مقر خلافته في الرصافة شمال بلاد تدمر. كان يتمتع بصفات العاهل. وفي أيامه بلغت الأمبراطورية الأموية أوسع نطاق جغرافي، لكنها بدأت تشهد أيضاً أول أعراض التفكك.

في العام ٧٣٠ ثار برابرة أفريقيا الشمالية. ولم يعد العرب يسيطرون على الوضع إلا في القيروان. وفي العام ٧٣٢ تحطم زخم الفتح العربي في أوروبا وبواتيه تحديداً. وفي بلاد الروم (الأناضول) فإن العرب وبعدما توغلوا العام ٧٣١ حتى بوابات القفقاس طردهم الأمبراطور لاون الإيزوري العام ٧٤٠ وفرض الحصار على مدينة ملاطية. وأما على حدود الصين فقد ثار أهالي سجديان.

### و ـ ثورة كبرى شيعية في العراق (٧٤٠)

وفي العام ٧٤٠ إنفجرت الثورة الكبرى الأولى للشيعة أو أنصار علي في العراق حين قام زيد بن علي وهو حفيد الحسين بإعلان الثورة على رأس مؤيدي جده من العراقيين الساخطين. لكن زيداً الذي هزم ولقي مصرعه على أيدي القوات السورية (٧٤٠) أصبح يعتبر في نظر الشيعة الامام الخامس الذي ينتمي إليه مذهب الزيدية الشيعي، وهذه الطائفة، كما قلنا، ما تزال موجودة في اليمن حتى اليوم.

### ز ـ إعادة البطريركية الملكية إلى أنطاكيا

منذ العام ٦٠٩ كانت الكنيسة الخلقيدونية أو الملكية في أنطاكيا والمتضامنة مع بيزنطية، بلا بطريرك. فالأحداث السياسية التي تعاقبت منذ ذلك التاريخ (الغزو الفارسي، الغزو العربي، إلخ...) حالت دون إختيار رئيس لتلك الكنيسة. فالبطاركة الذين كانت تعينهم بيزنطية لشغل ذلك المنصب إستمروا في إقامتهم في العاصمة البيزنطية. وبدءاً من العام ٧٠٢ لم يعد يعين بطريرك إسمي على أنطاكيا.

ولكن هذا الشغور إنتهى العام ٧٤٠ وهو التاريخ الذي أعطى فيه الخليفة هشام للمسيحيين الملكيين حرية إنتخاب بطريرك لهم شرط أن يكون سورياً وأن يقيم في سورية. وفي العام ٧٤٢ تسلم البطريرك الجديد كرسيه في أنطاكيا.

### ح ـ إنشاء بطريركية أنطاكيا المارونية في سورية المجوفة.

وفي حوالي ذلك التاريخ إنتخب الموارنة الذين كان مركزهم الرئيسي في دير مار مارون على نهر العاصي بدورهم بطريركاً رئيساً لهم. وأول مستند تاريخي يشير إلى البطريركية المارونية يعلمنا أنه في العام ٧٤٥ ـ ٧٤٦، «ظل الموارنة على ما هم عليه اليوم أي يرسمون بطريركاً وأساقفة من ديرهم»[٢٧]. ويفهم من هذا المقطع أن كرسي البطريركية المارونية المعروف بكرسي أنطاكيا كان قائماً قبل ذلك التاريخ.

### ط ـ فوضى وإضطرابات وقلاقل (٧٤٠ ـ ٧٤٤).

وحاول هشام عبثاً، بتدابير صارمة، وقف حركة القدريين الفلسفية أو أنصار الخيار الحر التي إنتشرت في أوساط مسلمي سورية لدى إحتكاكهم بمسيحيي تلك البلاد.

أما الوليد الثاني (٧٤٣ ـ ٧٤٤) خلف هشام فكان شجاعاً ومتعلماً وشاعراً وموسيقياً وكان أكثر أسلافه خلاعة. وليتحرر من كل ضغط عاش في الصحراء حيث بنى دارة للصيد وهو ما يعرف حالياً بقصير عمرة وهو مبنى عظيم،كما بنى قصر المشتى في شرق الأردن من غير أن يكتمل إنجازه.

27 Michel le Syrien, cité par Mgr Dib, *L'Eglise maronite*, I, p. 146.

وقد راعى الوليد الثاني جانب القيسيين مما أثار عليه نقمة المقاطعات وأدى إلى قيام تحالف ضده بين اليمنيين الساخطين والقدريين المضطهدين. فهرب الخليفة من وجههم إلى الشمال حيث لحق به الثوار وقتلوه جنوب منطقة تدمر (٧٤٤).

أما يزيد الثالث (٧٤٤) فهو من أُم من طبقة الرقيق. كان أميراً غبياً رفعه القدريون إلى العرش. وفي أيام حكمه القصير الذي لم يتعدَ الستة أشهر اشتد التنافس التقليدي بين القيسيين واليمنيين وإنفجر في حرب أهلية طال لهبها مختلف المناطق السورية التي راح كل منها ينادي بخليفة.

وأما إبراهيم (٧٤٤) وهو أخو يزيد الثالث وخلفه فكان هو أيضاً رجلاً لا شأن له وقد خلع بعد بضعة شهور من قبل الأموي النشط والحازم مروان الثاني، حاكم ما بين النهرين وأرمينيا والذي بعدما سحق اليمنيين من أنصار إبراهيم في عنجر في البقاع دخل دمشق وأعلن نفسه خليفة (٧٤٤).

### ي ـ الخليفة مروان الثاني آخر إنتفاضة سلالة الأمويين.

مروان الثاني (٧٤٤ ـ ٧٥٠) هو آخر الخلفاء الأمويين. كان يتمتع بصفات القائد الحقيقية ولكنه وصل في وقت لم تعد فيه قيمة الرجل تكفي لمقاومة مجرى الأحداث. فالأمبراطورية العربية السورية الواسعة التي كانت تفتقر إلى الوحدة الطبيعية بدأت بالتفكك وأخذت المقاطعات الآسيوية والأفريقية تبتعد عن دمشق. وفي سورية نفسها، وحيث كان الأمويون يستمدون بإستمرار القوة التي تساعدهم على التصدي لجميع الفتن، فتر كثيراً ولاء الجماهير السورية لهم وكانت الثورة كامنة في كل مكان.

وكان مروان الثاني، الذي أمضى معظم حياته في أرض المعارك وفي بلاد ما بين النهرين، شبه غريب في سورية حيث كان اليمنيون يسعون للثأر لهزيمتهم الأخيرة في عنجر. لذا وفور تسلمه الحكم، نقل مروان الثاني المصالح الإدارية الكبرى في الخلافة إلى حرّان قرب الفرات الأوسط. وقد أغاظت عملية النقل هذه السوريين الذين رأوا فيها إنتقاصاً من دور بلادهم وتحويلها إلى مجرد مقاطعة. وتداركاً للثورات عمد مروان الثاني إلى عزل المدن السورية الرئيسية بعضها عن بعض وإستقدم إلى حرّان سائر الأمويين القاطنين في سورية. بيد أن الحاميات العسكرية السورية في العراق والمؤلفة في معظمها من اليمنيين المعادين لمروان تحالفت مع الخوارج الذين كانوا قد أعلنوا الثورة. فهرع الخليفة من دمشق ونجح في إخضاع العراق وأخذ يعد العدة لإرسال

قـوات لمعاودة فتـح الجزيـرة العربيـة التي أعلنت إنفصالهـا عن الخلافـة حـديثـاً بقيادة حزب قوي من الخوارج، عندما برز خطر جديد يثير القلق أكثر من سائر الأخطار، في بلاد خراسان: العباسيون.

## ٢ ـ نهاية السلالة الأموية وأمبراطورية دمشق العربية السورية

وبـدءاً من العام ٧٤٥ راحت الأحـداث التي ستـزيـل السـلالـة الأمـويـة وأمبراطورية دمشق العربية السورية تتلاحق بوتيرة سـريعة. إن أسبـاب الضعف التي جعلت وجـود الأمبراطـورية في خـطر منـذ لحـظة تـأسيسهـا سـوف تعـطي نتائجها الآن تبعاً لضعف العناصر التي سمحت للأمبـراطوريـة حتى ذلك الحـين بإطالـة عمرهـا. فالقبـائل العـربية التي صنعت قـوة الأمويـين العسكريـة فقدت الآن الى جـانب تماسكهـا، أهميتها العـددية وقـوتها القتـاليـة أيضـاً. ومن جهـة أخـرى فإن الـدعم الثـاني لسـلالـة الأمـويـين والمتمثـل في السكـان السـوريـين الأصليـين وبخاصـة الدمشقيـين، وهؤلاء في معظمهم اعتنقـوا الاسـلام ولكنهم كـانوا يعـاملون معـاملة أدنى مـرتبـة من أقـرانهم المسلمـين، فـراحـوا يـطالبـون بالمسـاواة في الحقوق ثم تعاطفوا مع العناصر الشيعية في العراق وأخـذوا يتآمـرون ضـد الدولـة. وأخيراً فـإن موارد سـورية الاقتصـادية منهـا والمـاليـة، وهي جـد متـواضعـة بـالنسبـة الى مـوارد العـراق أو مصـر، لم تكن تسمـح لخلفـاء دمشق بتجنيد آسيويين أو أفارقة لتعزيز قواتهم العسكـرية ومـواجهة الأخـطار الداخليـة والخارجية البادية من كل جانب.

ومن جهة أخرى، ومنذ إتساع رقعة الأمبراطورية نحو الهند، فإن مركز الثقـل الاقتصادي للشـرق ابتعد شيئـاً فشيئاً نحـو سهول وادي دجلة ـ الفـرات التاريخية. وإن البرزخ الإيراني، وقد حل محل البحر المتوسط الذي فقـد وحدتـه منـذ الفتح العـربي، فقد استعـاد كما في العصـور القديمـة دوره السابق كشـريان حيـوي لـلإقتصـاد الـدولي. إن سـوريـة، التي أخفق حلمهـا في أمبـراطـوريـة متـوسطيـة، فقدت مـوقعها المميـز كمركـز سياسي للخـلافـة. ولتلك الأسبـاب نفسهـا لم يكن بوسـع مصر الحلول محلهـا في ذلك الـدور الجديـد. أما الجـزيـرة العـربية، مهـد الإسلام، فهي ومنـذ إنشاء الأمبـراطوريـة العـربيـة الإسـلاميـة وللأسباب نفسها التي أشرنـا اليها لم تعـد المركـز الحيوي بـالنسبة الى هـذا العالم الواسع.

لـذا فإن العـراق، أو بابـل ـ كلده القـديمـة، والمـركـز السيـاسي القـديم

لـلأمبـراطـوريـات الإيـرانيـة الكبـرى القـديمـة هـو الـذي سيصبـح عـلى رأس الأمبراطورية العربية ـ الشرقية وقلبها،والتي باتت الآن أكثر قـارية وآسيـوية منهـا متـوسطيـة. وإنه، ومنـذ زمن بعيد سـابق، كانت المقـاطعات الآسيـوية في تلك الأمبراطورية والتي يحكمها العراق تحاول التحرر من وصاية دمشق.

«وبدءاً من أراضي منطقة بابل لجهة الشـرق نحن في منطقـة مختلفة هي، وحتى أكـثر من اليـوم، متجهـة نحـو الشـرق. إن وادي النهـرين، وهـو أحـد اهراءات الشرق الأدنى والـذي تعزلـه الصحارى عن سـورية وجـزيرة العـرب، يتجـه نحو الهنـد عن طريق الخليـج العـربي. كـما أن ممـرات الجبـال الفـارسيـة تسهل اتصاله مع الهضبة الإيرانية ومنها مع آسيا الوسطى ومع الهند»[٢٨].

### أ ـ هياج شيعي ومعاد للعرب في العراق وإيران

وفضلاً عن العوامل العديدة التي ذكرناها سـابقاً والتي حملت دومـاً العراق وسورية على التعارض ثمـة أسباب عـديدة مبـاشرة أسهمت مـا بين العـام ٧٤٠ والعـام ٧٥٠ في العراق وإيـران في سقوط سـلالة الأمـويين في دمشق واستبـدالها بسلالة العباسيين الذين جعلوا إقامتهم في بلد دجلة ـ الفرات.

«إن العلاقات الثابتة بين خراسـان والبصرة نـاهيك بـالكوفـة وهي مراكـز الفتن الشعبية التي يسببها أنصار علي،كـانت تنمي لدى جميـع سكان إيـران تياراً من الأفكـار المعاديـة لفكرة «الملكيـة العربيـة» التي كـان أمـويـو دمشق يجهـدون لتنـظيمها والتي بـرغم كـونها أصبحت سـلاليـة، فقـد حـافـظت عـلى طـابعهـا البـدوي، وكان هؤلاء الإيـرانيون خـلافاً لـذلك يشعـرون بانجـذاب الى عقيدة عـلي التي تحصر السلطة بـأسرة النبيﷺ وتنمي شيئـاً فشيئاً طـابع هـذه الأسـرة المافوق بشري.

وعنـدما نـظمت الدعـاية العلويـة نفسها في العـراق وأوفـدت رسلهـا الى خـراسان وجـد هؤلاء في الحال أرضـاً ملائمـة لنشاطهم. وبـدءاً من العام ٧١٨ راح رسل الشيعة يظهرون دورياً في خراسـان بأمـر من الكوفـة... وقد ولـدت هـذه الحركـة في محيط أحد المتحـدرين من علي وهـو محمد ابن الحنفيـة... وقد تنـازل أبو هـاشم، إبن الحنفية، العـام ٩٨هـ. (٧١٧م.) عن جميع حقـوقـه في الخلافة لصالح أحـد أعضاء سـلالة العبـاس (عم النبيﷺ) وهو محمـد بن علي الذي يبدو أنه أصبح قائد الحركة ضد الأمويين...

28 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 189.

إن الدعاية العباسية لم تبلغ ذروة انتشارها إلا بعد وفاة محمد هذا،العام ٧٤٣.وقد عهد ابنه ابراهيم الى أبي مسلم الخراساني، وهو إيراني على الأرجح، بقيادة الحركة وقد كان وراء الأحداث التي ستؤدي الى الثورة. . . ولم يكن أبو مسلم مديناً بنجاحه الى براعته في الإفادة من أخطاء أخصامه وحسب، بل الى عجز هؤلاء الأخصام عن الاتحاد أيضاً. . . وقد كان. . . خلاف المجموعات العربية هو الذي أمّن لأبي مسلم منطلق انتصاراته. وكان القادة العرب ينجرفون في المؤامرات الأكثر تعقيداً ضد بعضهم بعضاً وبتنافر عنيف: وكانت المصلحة الشخصية والغرور أو لحظة انفعال تجعلهم ينقلبون من فريق الى آخر بسحر ساحر»[٢٩].

ب ـ ثورة خراسان (٧٤٧)

وفي العام ٧٤٧ ثارت خراسان بقيادة أبي مسلم ورفضت وصاية دمشق وسلطة خلفائها السياسية والدينية. وأقسم الثوار اليمين على متابعة النضال حتى انتصار قضيتهم والاعتراف بأحد أعضاء أسرة النبيﷺ الذي يلقى إجماعاً كإمام أو خليفة. وكان شعار الانضواء هو اللون الأسود والذي أخذ يظهر على الأعلام والألبسة الرسمية. وقد ذهب أبو مسلم أبعد في توضيح موقفه خلال خطبة يوم الجمعة في مسجد سيكادانج (خراسان) حين ألقى تلك الخطبة باسم أحد العباسيين. وكان علمان أسودان أرسلا من الكوفة وعلقا عند أسفل المنبر يؤكدان تواطؤ العراق وتضامنه مع هذه الحركة.

ج ـ الخراسانيون يستولون على الكوفة ويبايعون العباس بالخلافة (٧٤٩)

وفي العام ٧٤٩ قام الثوار الخراسانيون، وعلى رأسهم أبو مسلم، بالاستيلاء على الكوفة حيث نادوا بأبي العباس وهو ابن حفيد العباس عم النبيﷺ خليفة على المسلمين. وأما أنصار علي الذين لم يكن لديهم مرشح قادر على تولي زمام قيادتهم فقد قبلوا بالأمر على مضض. وتقدم الخليفة الجديد كمرشح الخراسانيين الذين حرروا العراق ونفضوا عنه نير العرب السوريين البغيض.

29 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 262, 263, 264.

### د ـ هزيمة الخليفة مروان الثاني وموته (٧٥٠)

هرع مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين، والذي لم يكن قد عرف بعد إلا الانتصارات العسكرية، لمواجهة الخراسانيين على رأس ١٢,٠٠٠ جندي سوري ـ مابينهري. وقد تسبب الانشقاق بين قيسي ما بين النهرين واليمنيين السوريين بالهزيمة المطبقة لجيش الخليفة الأموي في سهل أربيل التاريخي على ضفاف نهر الزاب الكبير (٧٤٩).

وفر مروان من بلاد ما بين النهرين التي ضاعت منه وعاد الى سورية مفكراً بالمقاومة داخل دمشق. ولكن وصول الخراسانيين وتخلي السوريين عنه جعلا الخليفة المسكين يلجأ الى مصر. فلاحقه الخراسانيون اليها وهزموه وقتلوه في بوصير في مصر الوسطى (٧٥٠).

### هـ ـ إبادة الأمويين

شهد نصر العباسيين بدء سلسلة من الجرائم. فالخليفة الجديد أبو العباس لقّب نفسه بالسفاح أي «الدموي» والذي أثبته عليه التاريخ. فرغم إجراء مدينة واسط العاصمة الأموية في العراق مفاوضات للإستسلام قبل بها أبو العباس إلا أن حاكم ذلك الموقع وضباطه الذين استسلموا الى المنتصرين قتلوا جميعاً وأبيحت دمشق للقتل والنهب. وكان الأمويون يقتلون أينما وجدوا وقد تقرر إفناؤهم بدم بارد. وفي أبي فطروس في فلسطين لقي ثمانون أموياً مصرعهم عندما دعاهم عبد الله عم الخليفة المنتصر الى وليمة فتم الغدر بهم في تلك الوليمة. ولم يَنجُ من تلك المذبحة سوى أحد أحفاد الخليفة هشام عندما نجح في الفرار الى الأندلس حيث أسس فيها سلالة الأمويين وخلافتهم في إسبانيا.

وبعد الأحياء انقض العباسيون على الأموات. ففي دمشق ودابق والرصافة وقنسرين تم انتهاك أضرحة الأمويين وحرق رفات الخلفاء الأمويين وذرّ رمادها في الهواء ولعنت ذكراهم ورذلت أسماؤهم.

### و ـ سحق ردة فعل سورية ـ أموية (٧٥٢)

إن السوريين الذين وقفوا، كرهاً بمروان، غير مبالين أمام سقوط الأمويين أدركوا بعد زوال هؤلاء الأمويين أن بلدهم أصبح مجرد مقاطعة أو محافظة وأن التساهل الحكيم الذي كان يعمل به الأمويون أفضل من وحشية

السادة الجدد وغدرهم الشرس والذين لا يمثلون في نظرهم سوى محتلين أجانب. لذا انفجرت الثورات في حوران وشرق الأردن ودمشق وفلسطين. وفي قنسرين شمال سورية فإن القيسيين نادوا بأبي محمد الملقب بالسفياني لأنه ينحدر من سلالة معاوية خليفة لهم. لكن عبد الله وجماعته من الخراسانيين هزموهم العام ٧٥٢ واضطر السفياني للهرب الى الحجاز حيث ألقي القبض عليه وقتل (٧٥٢).

ز ـ السفياني بطل قومي سوري

ولفترة طويلة ظل اسم السفياني يمارس سحراً حقيقياً على السوريين. فهذا البطل القومي والشهيد سيصبح بطل الحرية السورية وسوف يجسد مطالب سورية ضد النير والظلم العباسيين. وإن المخيلة الشعبية ستحوله الى أشبه بمخلص أو مهدي أموي يجب ان تسبق عودته مجيء المهدي المنتظر.

«الى ذلك فإن أنصاره لم يقبلوا التصديق بأنه مات، وكانوا ينتظرون عودته وكأنه مخلص أو مهدي منتظر سيعيد الى سورية أيام العز والسيادة. ولما خاب أملهم هذا جعلوا منه الممهد لقدوم المهدي بحسب العقائد الإسلامية المتعلقة بالعالم الآخر. وإن أواخر الباقين اليوم من تلك الفرق الموالية للأمويين والذين على غرار الشيعة يعلقون آمالهم السياسية على الروحية الدينية هم اليزيديون الأكراد في منطقة الموصل والذين يعيشون حتى اليوم على جبال سنجار ويتوزعون منها شمالاً حتى القفقاس»[٣٠].

ح ـ زوال السيادة السورية

ومع سقوط الأمويين فقدت سورية الى الأبد دورها العرضي الذي ارتفعت من خلاله موقتاً الى مركز سياسي لأمبراطورية شرقية كبيرة. وهذا الدور الذي وضع العباسيون حداً له عاد الى مركزه التاريخي والطبيعي أي بلاد أشور ـ بابل ـ كلده القديمة، وهي مركز الثقل الاقتصادي في الشرق الأدنى حيث ستنهض أمبراطورية إسلامية ـ شرقية جديدة هي الخلافة العباسية في بغداد.

«إن دمشق كانت عاصمة القبائل ورأس جسر تحتله جزيرة العرب في العالم الآسيوي القديم. وبدءاً من اللحظة التي أفلت فيه التفوق من يد العالم

30 Brockelmann, *op. cit.*, p. 96.

العربي أصبح مستحيلاً أن تبقى دمشق عاصمة الأمبراطورية»[٣١].

إن الأمبراطورية القصيرة العهد التي أنشأها البابليون الجدد أو الكلدان (٦١٢ ـ ٥٣٩ ق.م.) وهي سادس أمبراطورية مابينهرية قد خلفت أمبراطورية حمورابي البابلية إثر غياب مابينهري دام أحد عشر قرناً تقريباً. وستخلف كذلك أمبراطورية الخلفاء العباسيين بدورها، وهي سابع أمبراطورية مابينهرية، الأمبراطورية البابلية الجديدة أو الكلدانية بعد ثلاثة عشر قرناً تقريباً من الغياب المابينهري.

### ط ـ إنهيار التفوق العربي في الأمبراطورية

إن الأمبراطورية العربية أو بالأصح تفوق العرب بحد ذاتهم، انتهت بزوال الخلافة الأموية. فالبدوي أكان رحلاً ام مستقراً سيتوقف بعد اليوم عن ممارسة دور القائد في الدولة وهو الدور الذي كان له منذ الفتح أي منذ نحو ماية وخمسة عشر عاماً تقريباً. وبدءاً من العام ٧٥٠ فإن سلالة السكان الأصليين من الأعراق الشرقية القديمة: الأراميين، السوريين، الأشوريين ـ الكلدان، الفرس، إلخ... الذين استعربوا وأسلموا سوف يعيدون العربي، الذي أصله من جزيرة العرب أو من القبائل العربية في سورية، الى المرتبة الثانية ويحلون محله في إدارة الأمبراطورية. وإن هؤلاء الشرقيين الذين استعربوا واتخذوا اسم العرب هم الذين سيستعيدون زمام أقدار الأمبراطورية الاسلامية وسيؤسسون في أيام حكم خلفاء بغداد العرب ـ الإيرانيين الحضارة العباسية المتألقة.

وفي المقابل، «وما أن يختفي عربي جزيرة العرب أو البدوي الفاتح والمحارب المؤسس للأمبراطورية من المسرح حتى تتوقف فوراً اندفاعة الفتح بل وتتحطم وحدة الأمبراطورية لتزول الى غير رجعة. فالغرب كله أصبح مستقلاً مرة واحدة... وفي الطرف الآخر من الأمبراطورية أي في الطرف الشرقي منها فإن الأتراك بدأوا لتوهم بالظهور»[٣٢].

31 Gautier, *op. cit.*, p. 224.
32 Gautier, *op. cit.*, p. 225.